المكتبـــة العربيـــة
ومصادرهـــــا

دكتور

محمد عبد المنعم خفاجى

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية



المكتبة العربية ومصادرها

المكتبة العربية ومصادرها

د. محمد عبد المنعم خفاجى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم ٣

الرقم البريدى : ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيداع : ٢٤٩٧/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولى : x - 229 - 327 - 977

تصديـر

المكتبة العربية تشمل جميع ذخائر التراث العربي العلمي والأدبي، وكل ما خلفه لنا أسلافنا من فكر دونوه في كتب مأثورة، مخطوطة أو مطبوعة. في شتى علوم العربية وآدابها.

والتراث العلمي في شتى فروع العلم له مجالاته وله علماؤه والباحثون فيه وله ذخائره الباقية لنا من مختلف العصور. ونحن هنا لا نتحدث عنه فذلك له رواءه والمتخصصون فيه وإنما نعنى هنا بكل التراث الأدبي الإنساني في اللغة العربية، بما يشمله هذا التراث من كتب في علوم اللغة والأدب والنقد والتاريخ والرحلات، ومن موسوعات ووثائق وغيرهما من مختلف ألوان التراث العربي التي تغذى العقل، وتنير الوجدان وتثير الفكر.

وقد يكون الذي طبع من ذخائر المكتبة العربية لا يتجاوز العشر. أما باقي هذه الذخائر فمخزون في شتى دور الكتب في العالم كله.

وحين نتحدث عن ذخائر المكتبة العربية سيسير بنا البحث إلى جميع المؤلفات العربية التراثية في اللغة والنحو والصرف، والبلاغة والنقد والأدب والتاريخ والرحلات والتصوف وما إلى ذلك كله.

ومن الذي يستطيع أن يتحدث عن مصادر المكتبة العربية كلها. إنما حسبنا هنا عرض صور ونمازج للمصادر المؤلفة - في بعض هذه الجوانب الثقافية المختلفة.

ولذلك أهمية في إنارة التراث وتوضيح جوانبه المتعددة، واتجاهاته المتنوعة والمتباينة، من أجل خدمة التراث والأدب واللغة والبحوث حولها، ومن أجل إضاءة تراثنا والكشف عن مخاليقه، وفهم كل ما يحيط به وبدراساته.

والهدف من ذلك كله خدمة البحث والباحث والدارس والمتعلم، وتمكينهم من فهم الثقافة العربية ومن قيادة حركتها وتوجيهها نحو خدمة الوطن العربي خاصة وخدمة الإنسانية عامة والتراث هو شخصية الأمة وتاريخها وحضارتها ممثلاً في كتاب وكاتب ومنهج بحث.

وما توفيقي إلا بالله؛

القسم الأول من الكتاب

المصدر والمرجع



المصدر والمرجع

- ١ -

المصدر والمرجع هما عماد الباحث فى بحثه والأساس الذي يمدنا بكل مواد البحث الأولية، والذى يتم به تكوين جوهر الموضوع وإتماؤه والذى يؤخذ منه وعنه الأفكار والآراء المختلفة المتعلقة بموضوع ما.

وفى أولى خطوات البحث لابد من الالمام بمصادره ومراجعه حتى يتسنى للكاتب المضى فى طريقه، ومعرفة ما يمكن أن يغيره فى كتابته.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن المصدر والمرجع بمعنى واحد، وهو كل ما يتعلق بالبحث المراد كتابته من دراسات ووثائق قديمة أو حديثة، مخطوطة أو مطبوعة، فالمصادر وكذلك المراجع هى كل ما يرجع إليه فى البحث للإفادة منه، والأخذ منه، والسير فيه، والرجوع إليه.

ويفرق آخرون بين المصدر والمرجع : فالمصدر عندهم هو ما يتصل بموضوع البحث اتصالا مباشرا معاصرا أو قريبا من المعاصرة.

والمرجع هو كل ما يفيد فى إثراء البحث وإنماء مادته من كتب ودراسات وغيرهما.

فموضوع كشاعرية شوقى نجد مصادره فى أعمال شوقى نفسها وفى كتاباته عن نفسه وعن شعره، وفى مذكراته الخاصة إن كان قد كتب مذكرات شخصية، ثم فيما يكتب عنه من رسائل جامعية، وفيما كتبه معاصروه عنه وعن شعره من رواء الأدب والنقد الذين عاصروه فى حياته.

والمراجع هى كل ما ينمى جوهر الموضوع من كتب لغير معاصريه، من كتابات فى الأدب والشعر والنقد، ومن ثقافات مختلفة عن عصر شوقي وبيئته والجو العلمي الذى عاش فيه، ومن مؤلفات تتصل بالشعر وبالشعراء المعاصرين لشوقي، وعن

ثقافات متنوعة فى كل نواحي البحث الأدبي، وهى التى يأخذ الباحث عنها شتى جوانب موضوعه لغويا وأدبيا وتاريخيا وغير ذلك.

وعلى الجملة فالمصادر تتمثل لنا فى كتابات رواد الأدب وأعلامه عن شوقي وشعره وشاعريته، وفى كل ما يتصل بشوقي اتصالا مباشرا.

والمراجع عن شوقي غيرها فى مختلف الكتب التى تعرض لشتى الثقافات والآداب فى عصر شوقي وفيما بعد عصره وفى كل تيارات الأدب والشعر والفن قديما وحديثا.

المكتبة

– ١ –

يجب على الباحث أن يعرف حين يدخل المكتبة كيف يهتدى إلى الكتاب المطلوب بسهولة ويسر ولكي نسهل عليه الأمر نرشده إلى المعلومات الآتية:

١ - في كل المكتبات المنظمة فهارس بأسماء المؤلفين مرتبة حسب حروف المعجم فعمر فى قسم العين ومحمد فى قسم الميم - وبعض المكتبات تلاحظ الحرف الأول - والثاني فى الترتيب، فاسم عامر يوضع فى أول حروف العين (ع . أ)، وعمر يوضع فى أواخر حرف العين (ع . م) ومحمد يوضع قبل محمود، ومحمود يوضع قبل منصور، ومصطفى يوضع بعد محمد، ومدثر قبل مصطفى وهكذا.

وأكثر المكتبات تبدأ بحرف (أ . ب) ثم بحرف ابن، وبعدها تسير فى ترتيب المؤلفين بحسب حروف المعجم، والبدء بأب ثم ابن، مراعاة أيضاً لترتيب حروف المعجم الذى يوجب البدء بالألف ويرتب الكلمات المبدوءة بالألف ترتيباً أبجدياً بحسب الحرف الثاني (أ ، أ - ثم أ فباء، ثم أ فتاء، فثاء، فجيم ... إلخ).

وبعض المكتبات تقدم أولاً اسم محمد قبل أب وابن. تيمناً بالاسم ولكثرته.

٢- وفى المكتبات أيضاً فهارس بأسماء الكتب مقسمة بحسب الفنون (علم الفقه. علم التفسير، علم الحديث، علم الأصول، علم التوحيد، علم الأدب، علم اللغة، علم النقد، علم التاريخ، التراجم، السير ... إلخ).

٣- وبعض المكتبات تفرد مخطوطاتها بفهرست خاص، والمطبوعات بفهرست خاص. والدوريات - أى المجلات والصحف - بفهرست خاص.

ومن ثم يمكن للذي يريد كتاباً من مكتبة أن يكشف عنه فى فهرس المؤلفين، أو يكشف عنه فى فهرس الكتب والفنون، أو فى فهرس المخطوطات إن كان الكتاب مخطوطاً.

ويسمى العلم الذى يبحث فى شوون المكتبات علم الوثائق والمكتبات (البيليوغرافيا)[1] باعتبار أن الوثائق التاريخية والسياسية والاقتصادية، ومنها المذكرات اليومية للأعلام، مما تفرد له المكتبات قسما خاصا فيها.

ويبحث كذلك هذا العلم فى الفهارس القديمة للكتب، وفى المراجع الحديثة عنها وفهارس المكتبات المعاصرة ويبحث كذلك فى كل ما يتصل بتنظيم المكتبات.

والمكتبات الحديثة كثيرة، وكانت المكتبات معروفة فى الإسلام منذ أواخر العصر الأموي.

وفى عصر الدولة العباسية أنشئت المكتبات الضخمة فى بغداد والقاهرة ودمشق،وقرطبة وأشبلية، وفى القيروان وفاس وفى مكة والمدينة وحلب، وفى جرجان والرى وأصفهان وغيرها، ومن بينها: بيت الحكمة فى بغداد، ودار الحكمة فى القاهرة.

هذا وأول نص عربى اتخذ شكل كتاب هو القرآن الكريم ولم يكد ينتصف القرن الثانى الهجرى حتى ظهرت المسانيد والمصنفات فى علم الحديث، وتلتها كتب التفسير والمغازى، ثم تتابع التأليف فى مختلف فروع المعرفة، فظهرت كتب اللغة والشعر والتاريخ.

وكانت الوسائل التى يكتب عليها بالغة البداوة، ولكن ما إن نصل إلى العصر الأموي وتصبح الفسطاط واحدة من أهم عواصم الدولة الإسلامية، حتى يتدفق ورق البردي على مراكز الثقافة فى البصرة والكوفة وبغداد، ويصبح فى وسع المؤلفين والناسخين الحصول عليه فى شىء من اليسر.

---

[1] العلم الذى يبحث فى شؤون الكتب والمكتبات وفى الفهارس القديمة للكتب والفهارس الحديثة لها وفى فهارس المكتبات المعاصرة ويبحث كذلك فى كل ما يتصل بتنظيم المكتبات

وعند فتح سمرقند على يد قتيبية بن مسلم عام ٧١٢م وجد بها مصنعا للورق إنتاجه أجمل وأرخص مما كانوا يكتبون عليه فى دمشق. وفى عام ٧٩٤م أنشئ أول مصنع للورق فى بغداد على غرار مصنع سمرقند، وفى عام ٩٠٠م أنشئ فى مصر كذلك، ثم فى المغرب حوالي عام ١١٠٠م وكانت هذه المراكز الصناعية تنتج كل أنواع الورق، من أبيض وملون.

وأقدم وثيقة مكتوبة على ورقة بردية يعود تاريخها إلى عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م)، وأقدم كتاب عربى مخطوط كتب على ورق هو كتاب "غريب الحديث" لأبى عبد القاسم بن سلام ويحمل تاريخ ذى القعدة عام ٢٥٢هـ ديسمبر ٨٦٦م، ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة فى جامعة ليدن بهولنده، ومنه نسخة أخرى أحدث تاريخا، ترجع الى عام ٣١١هـ - ٩٢٣م محفوظة فى مكتبة الجامع الأزهر.

وفى القرن الثالث الهجري أصبح الإملاء أعلى مراحل التعليم، وفيها يقعد عالم، وحوله تلاميذه، ومعهم أقلامهم ومحابرهم وقراطيسهم، يتكلم فى العلم، ويكتب عنه الطلاب، وقد يعود الأستاذ إلى ما أملاه فيراجعه، وهكذا يصبح ما خطه التلاميذ كتابا، ويسمى إملاء، والأمالى، ومجالس الإملاء، وتشبه فى مفهومنا الحديث المحاضرات العامة، ومع الزمن كثرت الأمالى وتنوعت، واستوت كتبا مستقلة.

وفى القرن الرابع الهجرى ترك العلماء طريقة الإملاء واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه الطلبة.

وكان الوراقون يقومون بما تقوم به المطابع فى هذه الأيام، ينسخون الكتب، ويقدمونها للقراء بيعا، وكانت النسخ المخطوطة تتفاوت فيما بينها تبعا لجودة الخط، ونوعية الورق، والحجم، وصحة النقل ودقة الضبط، وجانب كبير من هؤلاء الوراقين كانوا من كبار العلماء، نذكر من بينهم محمد ابن إسحاق النديم صاحب الفهرس، وابن شاكر الكتبى صاحب فوات الوفيات وغيرهم، على أنه لا تملك أمة من الكتاب مخطوطا ما تملكه الأمة العربية.

وكانت المكتبات مكانا للعلم والدراسة والقراءة والتأليف والمحاضرة والترحمة وغير ذلك من الأهداف التى قصد إليها بإنشائها.

وعنـى الأفـراد بإنشـاء المكتبـات الخاصـة لهـم، وتنافسـوا فـى اقتنـاء المخطوطات النفيسة لهم.

- ٣ -

وأشهر المكتبات العالمية هى:

١. مكتبة الكونجرس الأمريكي (٣٠ مليون كتاب، منها مليون كتاب عربي).
٢. المتحف البريطاني (٢٤ مليون كتاب، منها ١.٢٥ كتاب عربي).
٣. مكتبة الفاتيكان (١٥ مليون كتاب، منها ٤٠٠ ألف كتاب عربي).
٤. المكتبة الوطنية القاهرة (١٥ مليون كتاب، منها ٩ مليون كتاب إسلامي).
٥. مكتبة الأزهر الشريف (نصف مليون كتاب) وغيرها.

الإسلام والكتاب:

الكتاب قديم، قدم الإنسانية، وقد أقيمت لحفظه المكتبات الجامعة وقد عثرت إحدى البعثات الأمريكية فى وادى الفرات على مكتبة تحوى ثلاثين ألف آجرة (لبنة) من الطين المجفف مكتوب عليها بالخط المسمارى معلومات عن شؤون إدارية وفنية وأدبية، كما عثرت بعثات أثرية أخرى على مكتبات فى وادى النيل من أقدمها مكتبة حوتب ..وقد اشتهرت فى القديم مكتبات عدة، كمكتبة الإسكندرية، ومكتبة الرها ومكتبة نصيبين ومكتبة القدس.

وقد عزرت الكتب السماوية مكانة الكتاب على مر العصور، ومن بين هذه الكتب السماوية المقدسة الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

وكان القرآن الحكيم تكتب آياته أبان نزولها على العظام والجلد وعسب النخل، وجمع فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وبيوت أعلام الصحابة، ثم جمع الجمع الأول فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، وفى عهد عثمان الجمع الثانى، وكتبت منه عدة نسخ أرسلت إلى الأقاليم الإسلامية الكبرى ليجتمع عليها المسلمون جميعا.

ويصف الله عز وجل القرآن الكريم بأنه كتاب إلهى مقدس.

- ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - البقرة آية (٢).
- نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه - آل عمران (٣).
- كتاب أنزل عليك .. لتنذر به وذكرى للمؤمنين - الأعراف (٢).
- تلك آيات الكتاب الحكيم - هود (١).
- كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير - هود (١).
- تلك آيات الكتاب المبين - يوسف (١) - الشعراء (٢).
- كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور - إبراهيم(١).
- تلك آيات الكتاب القرآن مبين - الحجر (١).
- الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب - الكهف (١).
- تبارك الذى نزل الفرقان على عبده - الفرقان (١).
- تلك آيات القرآن وكتاب مبين - النحل (١).
- تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم - غافر (٢).
- تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم - الزمر (١) - الجاثية (٢).
- تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته - فصلت (٢).
- والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً - الزخرف (٢).
- والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة - الدخان (٢).

وفى الإسلام نشأت المكتبات لحفظ الكتب للقراءة والمطالعة، وذلك مع نشأة المساجد، حيث جمعت الصحف من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ثم من تفسير القرآن، ومن الكتب الدينية .. وكان بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى المكتبات، حيث كان يجمع فيه ما يدونه كتاب الوحى من التنزيل، ثم نقلت من بيت الرسول ومن بيوت الصحابة إلى بيت أبى بكر، ثم حفظت هذه المصاحف فى بيت عمر عند حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى أن استعارها عثمان ونسخ منها المصاحف، وصارت بعد ذلك بيوت الصحابة بمثابة مكتبات خاصة،

كبيت سعد بن عبادة الأنصاري (ت ١٥هـ)، وكان فيه كتب تحتوى على طائفة من الحديث النبوى، وكبيت ابن مسعود وتجمع فيه عدة صحف بخطه وصحف المصحف كذلك وكان عند أبى هريرة (ت ٥٩هـ) كتب فيه حديث رسول الله صلوات الله عليه، كما كان الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص يحفظ كتباً له فى صندوق، وتجمع عند عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير (٣٢ - ٩٣هـ) كتب كثيرة، ولما احترقت كتب عروة فى يوم الحرة حزن عليها وقال: وددت لو أنى استطعت أن أفتدى كتبي بأهلي ومالي.

والكتاب له مكانة كبيرة فى الإسلام، وقد عنى المسلمون به وبإنشاء المكتبات العامة والخاصة فى كل عصر وكل مكان، وحسبنا خزانة كتب قرطبة التى ذمت أربعمائة ألف مجلد أو ستمائة ألف بينما حاول شارل الخامس ملك فرنسا فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادي) إنشاء مكتبة فرنسا الرئيسية فلم يستطع جمع أكثر من تسعمائة مجلد خمسها فى اللاهوت، وفى عصر الرشيد أنشئت دار الحكمة (أو بيت الحكمة) وكانت من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسي كله .. وفى عصر الحاكم الفاطمي أنشئ فى القاهرة لذلك دار الحكمة أو دار العلم وهى من أعظم خزائن الكتب فى العالم الإسلامي آنذاك، وبعد انتهاء حكم الفاطميين اشترى القاضى الفاضل الوزير الأديب الشاعر أكثر كتب هذه الخزانة ووقفها بمدرسته الفاضلية كما فى "صبح الأعشى" (جـ١ صفحة ٤٦٧).

وكان لابن العميد، وللصاحب بن عباد مكتبة كبيرة، كما كان للمبشر ابن فاتك (ت ٤٨٠هـ) أحد أعيان مصر وعلمائها فى العصر الفاطمي مكتبة قيمة، وكان للمعتصم بالله آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد (ت ٦٥٦هـ) مكتبة ضخمة فى قصر الخلافة .. ونقرأ أن عائشة القرطبية إحدى كاتبات المصاحف المشهورات (ت ٤٠٠هـ) كانت لها خزانة كتب كبيرة، كما كانت للمدرسة النظامية فى بغداد وللجامع الأزهر فى القاهرة، وللزيتونة فى تونس، وجامع القيروان وللقرويين فى فاس، وللمدرسة المستنصرية فى بغداد مكتبات كبيرة.

ومن المكتبات المشهورة فى الإسلام: المكتبة الحيدرية بالنجف وهى خزانة كبيرة ولا تزال قائمة وخزانة كتب سابور بن اردشير (ت ٤١٦هـ) التى أنشأها عام ٣٨٣هـ، وسماها دار العلم، وكان فيها أكثر من عشرة آلاف كتاب،وكان أبو العلاء المعرى يكثر التردد عليها عندما زار بغداد. ومن خزائن الكتب المشهورة: خزانة المكتبة التيمورية التى جمع كتبها أحمد تيمور باشا (ت ٩٣٠هـ) والخزانة الزكية جمعها أحمد زكى باشا شيخ العروبة (ت ٩٣١هـ) ومكتبة الشيخ نصيف فى جدة وقد أهديت إلى جامعة الملك عبد العزيز فى جدة ومكتبة المسجد الحرام فى مكة المكرمة، ومكتبة المسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة[٢].

جريدة الشرق الأوسط. لندن، العدد ٣٧٤١. السنة ١١، الجمعة ١٩٨٩/٢/٢٤.

تراث الأمة العربية

- ١ -

تراثنا تراث كبير، يتصل بتاريخ الأمة العربية وحضاراتها وشخصيتها وعقيدتها الدينية اتصالاً وثيقاً، وهو فى كل فروعه وألوانه وموضوعاته السمة المميزة للأمة ولإسهاماتها طوال العصور فى بناء الحضارة العالمية.

وتصوروا كيف يكون الحال لو أن العرب لم يسهموا فى العصر العباسى فى حفظ التراث الإغريقى، أو أن مصر لم تسهم بعد تدمير المغول لبغداد عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨هـ) فى جمع التراث الإسلامى العربى وحفظه وتداوله.

إن التراث، هو مثل الآثار القديمة، فى ضرورة البحث عنه، وحفظه، والعمل على تداوله ونشره بكل ما لدينا من طاقات وإمكانات.

والتراث قد نستطيع أن نعد منه كل ما تركه أسلافنا حتى مائة عام، أو حتى خمسين عاماً، أو حتى ثلاثين عاماً، كما فعلت الدول الكبرى فى إتاحة الفرصة للاطلاع على وثائقها المخطوطة المحفوظة لديها، وبذلك يمكن أن نعد كل آثار الفكر العربى القديم والحديث تراثاً حتى منتصف القرن العشرين مثلاً، والتراث الأدبى الذى يعنينا من جملة التراث هو المخطوط الذى لم ير النور بعد، وهو الذى يجب علينا التنقيب عنه، والكشف والإعلام به، وتعريف الناس بمضمونه. وللأسف فإن كثيراً من روائع التراث الأدبى الحديث لا يزال مفرقاً منشوراً فى صحف ومجلات قديمة، أصبح من العسير الحصول عليها أو الإطلاع مجرد الإطلاع على أعدادها.

والكثير من مقالات توفيق الحكيم والعقاد وطه حسين وغيرهم لا يزال يقبع فى مختلف المجلات والصحف التى لا يعرف الناس عنها شيئاً، سواء الصحف والمجلات المصرية أو العربية عامة أم الإسلامية فى نطاقها الواسع.

ولا نزال مختلفين فى أول من أنشأ القصة والرواية العربية، لأن آثاراً قصصية وروائيـة لا تـزال مجهولـة لم نطلـع علـى أمـاكن نشـرها مـن المجـلات والصحـف المختلفة.

التراث الأدبى العربى أو قل الإسلامى كثير وكبير، ومخطوطاتـه لا تـزال محفوظة فى خزائن الكتب فى كل مكان، وبعضها نجهل مكـان وجـوده، والكثير منه يعد فى حكم المفقود دون شك.

وإذا جاز لنا أن نعد هـذا التراث كنزاً مـن الكنـوز التـى خلفها لنـا الأسـلاف، فإن من واجبنا أن نفتح هذا الكنز، لنغترف منه، ولننتفع به، ولنزداد بالاطلاع عليه علماً بأصول ثقافتنا العربية الإسلامية الممتده طوال خمسة عشر قرناً من الزمان.

وتراثنا الأدبى المطبوع منه والمخطوط هو الذى حفظ على الأمة العربية ذاتيتها وشخصيتها وكيانها الخاص المستقل.وهو أساس ثقافة شبابها وأدبائها ومفكريها وعلمائها على طول العصور، وعليه تخرج أعـلام الفكر العربى على امتداد الأجيـال، وبه حفظت اللغة العربية، لغة القرآن الكريم من الضياع والشحوب.

الحفاظ على هذا التراث حفاظ على اللغة العربيـة، وعلى الشريعة الإسلامية الخالدة بإذن الله.

ومن الضرورى إعادة تـاريخ حقـول الفكر العربى المتنوعة، واحـداً واحـداً، تاريخاً دقيقاً شاملاً وكاملاً، يستقصى جميع الأعمال، ويكشف عن التطورات والتيارات المختلفة، وعن عواملها، عن مواطن الإبداع والإشـراق، ومواطن الضعف والشحوب فيها، قديماً وحديثاً، ليكون تاريخاً موضوعياً للماضى، ومدافعاً حقيقياً أمام الحاضر، ودافعاً للجد والأمل فى المستقبل.

وأعتقد أن الشكوى المرة من ضعف جيلنا فى اللغة العربية، إنمـا يرجـع هـذا الضعف إلى إهماله للتراث، وبعده عنه، وعدم القراءة له، أو الاطلاع عليه، ومـن أجـل ذلك يجب إحياء العرف الذى كان سائداً فى سنوات ماضيات بتوزيع بعض الأعمـال التراثية المحققة المناسبة على جميع الطلاب، أو الممتازين منهم فى التعليم العـام

والجامعى، وبتقرير بعض هذه الأعمال التراثية على الصفوف المختلفة كمادة للقراءة أو للمسابقات الأبية.

ويتصل بذلك ضرورة أن تقتنى مكتبات المدارس والهيئات والتجمعات والأندية الكثير من الكتب التراثية.. وأذكر أن حديث عيسى ابن هشام مثلاً وكذلك كتب المنفلوطى كانت دائماً فى مقدمة الكتب إلي تتنافس المكتبات العامة على اقتنائها، ثم تلاها كتب العقاد وطه حسين والدكتور محمد حسين هيكل ومن إليهم.

وعقد مسابقات بين صفوف الشباب فى الأعمال التراثية، قراءة وفهماً ودراسة واستلهاما مما يجب العمل به، والرجوع إليه.

وإعادة عرض ما يصلح عرضه من كتب التراث أمام أطفالنا فى لغة فصيحة أو بإعادة صياغته، مما يغرس فى نفوسهم حب التراث والتزود بثقافته، والاهتمام بقراءته، وأمامنا ألف ليلة وليله، التى أصبح الاهتمام بها فاشياً، لعرضها أو عرض موضوعات منها فى الإذاعة المسموعة والمشاهدة، وذلك كله مما يقرب التراث إلى أذهان الشباب، ليألفوه ويقبلوا عليه.

وقد لجأ بعض المعاصرين إلى تهذيب عدد من كتب التراث، دون إضرار بمضموناتها، وذلك باختصار الكتب المطولة، وبإبرائها من السقيم والضعيف والسخيف وما يلائم أذواقنا وهو عمل محمود، يؤدى إلى توثيق صلتنا بالتراث ولا ريب.

ومن الضرورى أن تعنى وزارات الثقافة فى العالم العربى، وكذلك الهيئات الثقافية، بالمجلات التى تصدرها، وان توجهها إلى العناية فيما نعنى به بالتراث لتكفل الحفاظ على شخصية الأمة ومقوماتها التاريخية من خلال تراثها الثقافى والأدبى الممتد، وعلى اتساع مختلف البيئات العربية، مع احترام روح المعاصرة.

-٢-

وللحفاظ على تراثنا بوجه عام، وتراثنا الأدبى بوجه خاص، صيانة له، واستثماراً للصالح منه القادر على العطاء، يصبح من الضرورى أن تنشئ كل دولة

عربية مركزاً للتراث يعمل بكل طاقته وإمكاناته على حفظه وعلى نشر ما يمكن نشره.. ويضم هذا المركز أقساماً متعددة، من أهمها:

١- قسم للتصوير، يكون من مهمته تصوير المخطوطات النفيسة في مختلف دور الكتب الوطنية في العالم، ويختار المخطوطات التي تتميز بالقدم والخط الجميل والقيمة العلمية العالية.

٢- مكتبة تقتني ما يمكنها اقتناؤه من هذه المخطوطات المنشورة في أنحاء العالم، أو الصور الجيدة عنها، ومن مختلف فهارس المكتبات التي تقتني جانباً من المخطوطات العربية، أو صوراً منها، وكذلك تقتني أمهات كتب التراث المطبوعة، والمعاجم اللغوية المختلفة، وكذلك تضم المكتبة المجلات المعنية بالتراث، ومن بينها: مجلة المورد العراقية، ومجلة معهد المخطوطات العربية ومجلة المجمع العلمي العراقي، ومجلة "مجمع دمشق للغة العربية" ومجلة المجمع اللغوي في القاهرة، ومجلة مجمع اللغة العربية في المملكة الأردنية.

٣- مجلة تراثية، تعنى بكل ما له صلة بالتراث على نمط مجلة معهد المخطوطات العربية في مصر، وقد أغلقت منذ سنوات طوال.

٤- معهد لتحقيق التراث، يكون من مهمته وضع قوائم شاملة ودقيقة ومصنفة بما يختاره من كتب التراث النفيسة الجديرة بالتحقيق، مما أفاد الأدب والفكر والعلم عند أسلافنا فوائد محققة، ويكون كذلك من مهمته تحقيق ما يمكن تحقيقه من هذه المخطوطات، ويفضل أن يقوم أولاً بتحقيق الموسوعات والكتب المتعددة الأجزاء التي تصرف عنها دور النشر، أو الأعمال الكاملة للشخصيات الكبيرة في تاريخنا الأدبي والفكري، ويتولى المعهد مساعدة المحققين في الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة في أنحاء العالم.

ويقوم المعهد كذلك بإعداد كوادر علمية متخصصة في تحقيق التراث، تدرس في المعهد العديد من مواد الدراسة المتعلقة بالتراث وتحقيقه كعلم تحقيق

النصوص، ونقدها، وقواعد العربية، والخطوط المختلفة، ومصطلحات الترقيم، وعلم العروض والقوافي، وعلم اللغة والمعاجم، ومصادر المكتبة العربية.

ومن مهمات المعهد كذلك التعريف الكامل بالمخطوطات متعاونا مع معهد المخطوطات العربية، وشتى الهيئات العربية المعنية بالتراث وبالمخطوطات، وكذلك يقوم المعهد بعمل الفهارس الوافية الكافية للكتب القديمة وللمجلات الأدبية ذات السمعة العالية.

ومخطوطاتنا في التاريخ جزء من التراث الأدبي، وقد كان أسلافنا يعدون التاريخ والجغرافيا - علم المسالك والممالك - أدباً، ويجعلون ذلك من أقسام علوم الادب، والعناية بمخطوطاتنا التاريخية، التي هي ولاشك مصدر كبير من مصادر تاريخ الأمة، هذه العناية من أهم الواجبات الملقاة على كاهل الجيل الحاضر، وفي كتب المسالك والممالك الكثير من المعارف والمعلومات عن مختلف الأمم والشعوب في العالم القديم وعن الأعلام المشهورة منها.

والجامعات العربية عليها واجب كبير في ضرورة العناية بالتراث عامة، والتراث الأدبي خاصة وصيانة وحفظ مخطوطاته، ونشر ما يمكن نشره منها.

وقد كان للإمام محمد عبده فضل العناية والتأسيس للمكتبة الأزهرية، التي حفظت الكثير من مخطوطاتنا القديمة الإسلامية العربية. كما كان لعلي مبارك باشا الفضل في إنشاء دار الكتب المصرية وجمع المخطوطات العربية وضمها إليها، وفي مصر كذلك كان لأحمد زكي باشا شيخ العروبة، ولأحمد تيمور باشا فضل العناية بالمخطوطات وبالتراث العربي الإسلامي.

وكذلك ضمت مكتبة رفاعة رافع الطهطاوي (ت ١٨٧٣م) ومكتبة معهد دمياط الديني، والمعهد الأحمدي في طنطا ومكتبة رفاعة في طهطا الكثير من المخطوطات النادرة.

وكذلك تبرع العديد من الأعيان والعلماء في مصر بمكتباتهم الخاصة وبما تحتويه من مخطوطات لمكتبة الأزهر ولدار الكتب المصرية، مما حفظ لنا جملة

كبيرة من نفائس تراثنا الأدبى ومن المخطوطات النادرة فى هذا الجانب وفى علوم الشريعة واللغة ومختلف أنواع المعرفة.

وبعد فتراثنا الأدبى المطبوع منه والمخطوط، والعناية به. وجمع مخطوطاته، وصيانتها، وتحقيق ما يمكن تحقيقه منها ونشر المحقق منها، واجب قومى ووطنى وإنسانى وحضارى، ملقى على كاهل الجيل الحاضر، يحتم علية القيام به انتماؤه القومى الإسلامى والعربى، والطموح إلى شرف خدمة الفكر والعلم، والى النهوض بالعمل من أجل إثراء الثقافة والمعرفة، والى تعزيز دور الحضارة الإنسانية فى نشر التقدم والرخاء والسلام فى العالم.

-٣-

هذا ويطلق التراث فى البحث على الكتب المخطوطة التى لم تطبع بعد فى جميع مواد الثقافة العربية والإسلامية، كما يطلق على الكتب المطبوعة لأسلافنا فى جميع فروع الثقافة والعلوم.

وكتب التراث فى البحوث الأدبية تشمل كل المخطوطات فى شتى موضوعات الدراسة الأدبية، وهذه المخطوطات موزعة فى شتى مكتبات البلاد العربية والإسلامية ومكتبات أوروبا وأمريكا، ومعرفتنا بها ممكنة عن طريق فهارس هذه المكتبات، وعن طريق مجلات المخطوطات المتخصصة كمجلة معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية وعن طريق كتب من مثل كتاب بروكلمان "تاريخ الأدب العربى".

وكتب التراث قد يكون فيها كتب على جانب كبير من الأهمية، وقد يكون فيها كتب لم تعرف قيمتها بعد، ولذلك يجب البحث عنها فى كل مكان، ويجب تصويرها وإيداع صورها فى دور الكتب العربية المختلفة، والهيئات الثقافية فى العالم العربى كمجلس الفنون والآداب، وكمجامع اللغة العربية فى مختلف البلاد العربية، وكوزارات الثقافة والتربية والتعليم فيها.

ومن المهم أن تعرف أن بعض المتخصصين يطلق التراث على الكتب القديمة التى ألفت قبل العصر الحديث مخطوطة أو مطبوعة فهو على هذا الرأي

يطلق على جميع المصادر القديمة للثقافة الإسلامية العربية وتعريفه على ذلك الرأي: ما خلفه لنا أسلافنا العرب والمسلمون من كتب ومؤلفات ورسائل وبحوث وما تحتويه هذه الكتب مطبوعة أو مخطوطة من آراء ونظريات لا سبيل إلى حصرها. والتراث إما تراث علمي وإما تراث أدبي، فالأول ما ألف في مختلف العلوم، والثاني هو كتب الأدب العربي ومن الباحثين من يعتبر كل موروث تراثاً حتى عصر جيلنا، أي إلى مائة عام في رأي، أو خمسين عاما في رأي آخر، فالتراث إذًا هو حصيلة ما خلفه لنا أعلام الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون.

ولقد عني بالتراث مؤتمر الأدباء السابع الذي انعقد في بغداد في اليوم الثاني من صفر ١٣٨٩ هـ (١٩ إبريل - نيسان ١٩٦٩)، فطرح موضوع "توثيق الارتباط بالتراث العربي" على بساط البحث، مع موضوعات أخرى.

إن علينا أن نرجع إلى التراث، ونستمد منه، ونأخذ عنه، ونجدد وفق أصوله فتراثنا الأدبي القديم والحديث صورة واضحة للفكر العربي إلى مختلف عصوره وأجياله الفكر الذي طالما مثل أعظم شريعة، وأروع نهضة، وأرفع حضارة، وأسمى مبادئ وأجل ثقافة، الفكر الذي كان العالم كله يتلفت إليه، ويخشع لديه، ويحيا عليه ويعشو إلى ضوء نهاره المشرق المسفر، الفكر الذي كانت له مكانته من حركات التجديد والبناء، وكانت له منزلته الجليلة وريادته النبيلة للأمم والشعوب والنهضات.

تراثنا الأدبي يمثل حقاً كل معالم تاريخنا وقوميتنا وشعائرنا ومشاعرنا وآلامنا وآمالنا ويمثل ميولنا وأذواقنا وعواطفنا، وهو جزء من كياننا وثقافتنا، لا غنى لنا عنه، ولا ملاذ لنا سواه.

إن تراثنا الأدبي أضخم أصل من أصول شخصيتنا الحرة الطموح، ومن عجب أن تزرى طائفة من المثقفين فينا بهذا التراث الأدبي الخالد، وتطرح قيمه ومثالياته، وتنادي باتخاذ الأدب الغربي نموذجًا ننسج على منواله أدبنا وثقافتنا وفكرنا.

أليس في هذه الدعوة امتهان لكرامتنا، وإذلال لنفوسنا وتاريخنا ورمي للفكر العربي بالجمود والنضوب، هذا الفكر الذي ارتفع بالإسلام وسما بالقرآن، ونبل بمدينة الشرق وحضارة المسلمين.

وإننا في حاجة دائمة للرجوع إلى هذا النبع الرقراق، والمنهل العذب، والغدق النمير، من أجل ثقافتنا وتفكيرنا وجوانب حياتنا الروحية والأدبية.

ويمكننا القول بأن أهمية التراث الأدب العربي تتركز في :

١- أنه يمثل الفكر العربي الإسلامي.

٢- أنه يمثل تاريخنا وحضارتنا وحياتنا وآمالنا وآلامنا.

٣- أنه يمثل أضخم أصل من أصول شخصيتنا.

٤- إذا كان المستشرقون يعنون بتراثنا الأدبي يأخذون منه ويرجعون إليه فالأحرى بنا أن نضعه موضع العناية والتقدير وأن نستفيد منه لما فيه من كنوز ثقافية وأدبية، وإذا رأيت بعض الجهلة منا ينفر من كتب التراث فاعلم أنه جاهل مفتون بالغرب ومذاهبه الهدامة.

- ٤ -

هنا ومن أشهر كتب التراث في الأدب والشعر والنقد كتاب البيان والتبيين للجاحظ الذي حققته عبد السلام هارون تحقيقاً علمياً دقيقاً ويليه كتاب طارت شهرته في كل مكان. وهو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٢٨٤ - ٣٥٦هـ)، وعليه تتلمذت الأجيال، واعتد به العلماء العرب والمستشرقون مصدراً أصيلاً للحياة العربية في عصر أبي الفرج في كل جوانبها السياسية والاجتماعية والأدبية والعلمية.

وحول أبي الفرج وكتابه "الأغاني" ألف محمد عبد الجواد الأصمعي كتابه "أبو الفرج الأصبهاني" وكتابه "الأغاني"، وتحدث فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر أبي الفرج، وعن حياة أبي الفرج وشيوخه وتلامذته ومعاصريه وآراء النقاد فيه وفي كتابه، وعن الغناء والموسيقى عند العرب وعن أهمية كتاب الأغاني في الحركة العلمية والأدبية والتاريخية والنقدية، وذيله بفهارس مختلفة.

تراثنا صورة لحضارتنا

- ١ -

تراث الأمة هو حضارتها وتاريخها وشخصيتها المتميزة بين الأمم، وهو المنجم الحضارى الذى تستمد منه الأمة أصول بقائها وتطورها وازدهارها الفكرى، بل والمادى أيضاً.

ونحن نعلم أن تراثنا قامت عليه حضارة ازدهرت فى العالم خلال ألف عام أو يزيد، وعلى أصوله قامت الحضارة الأوربية الحديثة.

وتراثنا العلمى - مع عظمته - هو نهج ثقافة العلماء المتخصصين، وشباب الباحثين والدارسين.

أما التراث الأدبى فهو غذاء كل الشعب، وكل الشباب، وكل المتعلمين، لأنه هو الذى يغذى وجدان الشعب ومشاعره وعواطفه بكل القيم الرفيعة الحية المؤثرة فى أخلاق الجماهير وسلوكهم وأذواقهم وحياتهم.

ونحن - الشعب العربى، والشعب المصرى العريق فى حضارته وعروبته - نملك تراثاً أدبياً غالياً كبيراً .. غالياً لأنه تراث لغة القرآن الكريم، وكبيراً لأنه تراث أجيال طويلة، وأعلام خالدين، وإسهام شعوب عديدة دخلت فى الإسلام، ونطقت باللغة العربية، وأبدعت فكرها الأدبى فى أسفار باقية على مر الزمان.

تراثنا الأدبى كثير جداً، ومتفرق فى شتى خزائن الكتب فى مختلف الأنحاء ونحن فى مصر - بحمد الله - نملك منه طائلة لا تزال مخطوطة فى دور الكتب فى القاهرة ومختلف مدننا الجميلة.

وهذا التراث المكتوب باللغة الفصحى عامل مؤثر فى الارتقاء بلغتنا الأدبية، وفى الحفاظ على أصالتها، وفى رفع مستوى شبابنا فى اللغة ومفرداتها وأساليبها،

وفى تذوقهم أيضاً، وفى استمرار إفادتنا من النتاج الفكرى المكتوب بالعربية الفصحى فى حياتنا المعاصرة، وهو الصلة القوية بين ماضينا وحاضرنا.

وتفريطنا فى هذا التراث الأدبى القديم أو إهماله - معاذ الله - يقطع صلتنا بالقرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ويمكن للهجات العامية من النمو على حساب الفصحى، مما ينمى التمزق الثقافى فى صفوف الأمة، لأن اللغة مكانتها الخطيرة المتميزة فى الوحدة الثقافية، والشكلة الحضارية، لا تنفك عنها. ولا ريب أن الشعوب المتقدمة تكنولوجياً وحضارياً هى التى حققت النسب العالية من الثقافة، ومن الإفادة من التراث.

ومن هذا نستطيع أن نقول أن عنايتنا بالتراث العربى يجب أن تتوجه إلى:

١ - التراث العربى المكتوب باللغة الفصحى بصفة عامة.

٢- التراث الأدبى المصرى بصفة خاصة، أى الذى كتبه أدباء مصريون طيلة ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً من الزمان، أى من بدايات حكم الولاة العباسيين لمصر عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م)، أى منذ بدايات ظهور أدب مصرى عربى مكتوب باللغة العربية، حتى عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م) وهو عام الثورة العرابية فى مصر، وعلى وجه الخصوص يجب أن نعنى بكل ما يتصل من هذا التراث بتاريخ مصر وحضارتها وأعلامها ورواد الثقافة والفكر فيها.

- ٢ -

أ- ماذا نصنع بهذا التراث الأدبى من المخطوطات التى بين أيدينا، أو التى قد نستطيع تصويرها من أى مكان؟

لا ريب أن نشر هذه المخطوطات بصورة علمية هو هدف ضرورى لبنائنا الفكرى والحضارى والتاريخى والعربى والإسلامى.

وهذا الهدف لكى نستطيع الوصول إليه يجب أن نمشى فى طريق معبد يؤدى بنا إلى أهدافنا المأمولة بإذن الله.

ب- ومن أجل ذلك لابد من القيام بدراسات تفصيلية للمخطوطات التراثية الأدبية، وجدولتها حسب الأجناس الأدبية أولا، ووفق الأهمية ثانيا، وباعتبار قيمتها الأدبية أخيرا، وذلك من أجل اختيار المخطوطات التى ترشح للتحقيق والنشر.

فهذه الدراسات الأولية ينبغى أن تتقدم تحقيق المخطوطات ونشرها، لأنها الطريقة الوحيدة لترشيد عمل المحققين وحركة التحقيق عن السقوط فى المتاهات، والتخبط بين عشرات الألوف من المخطوطات وإخراج بعضها دون انتقاء علمى مبنى على دراسات عميقة متخصصة.

والأولى استبعاد ما حقق من كتب التراث الأدبى، حتى لا يعاد تحقيقه مرة أخرى، وحتى تتوجه العناية إلى المخطوطات المكدسة لم يولها أحد من قبل أية عناية.

ج- إن المطلوب من جيلنا ليس هو فحسب مجرد العناية بالتراث الأدبى المتمثل فى عشرات الآلاف من المخطوطات، بجمعها وحفظها ونشر عدد محدود منها بل هو السعى الحثيث للتعريف الكامل بالمخطوطات، بدراسات تكتب عنها، تعريفا بها وبمدى أهميتها وقيمتها، بوساطة العلماء المتخصصين أو الباحثين المتميزين، وأساتذة الجامعات، فى كليات الآداب واللغة والتربية وكلية دار العلوم، على أن تتم هذه الدراسات بأقصى سرعة ممكنة، وذلك لتكوين رؤية واضحة للتراث الأدبى المخطوط، تمكننا من تحديد الأولويات وذلك لكى نستطيع البدء فى ترشيد حركة تحقيق المخطوطات.

ومن المؤكد أن إعداد قوائم بالمخطوطات ذات القيمة الأدبية العالية، لاختبارها للتحقيق شىء ضرورى، وأمر لا غنى لنا عنه، إذ أن بعض المخطوطات يمكن أن يكون لدينا استغناء عنه، وقد يكون من الكتب المطبوعة ما يسد مسده، وبعضها ألفه مغمورون، ليس لهم مستوى أدبى أو علمى متميز، وبعضها فيه من النقص أو التحريف والتصحيف أو التشويه والتآكل ما قد يتعذر معه إخراجه محققا مصححا، والإفادة منه فى موضوعه، وبعضها نشر وحقق من قبل، فى أى مستوى من التحقيق، فلا داعى للتفكير فيه مرة أخرى .. إن معرفة ذلك كله أمر ضرورى، قبل البدء فى

التحقيق. إذ أن إحياء المخطوطات ليس هدفاً لذاته، بل هو وسيلة لخدمة المعرفة، فإذا كانت لا تضيف جديداً إلى معارفنا فالأولى إهمال مثل هذه المخطوطات، حتى لا نبذل جهداً يمكن إنفاقه فى إحياء المخطوطات المهمة، التى يثمر عملنا فيها.

وعندما تتوفر لنا دراسات قيمة تفصيلية عن مخطوطات التراث الأدبى المبثوثة فى دور الكتب وخزائنها فى مصر وخارج مصر، يمكن بعد ذلك أن تبدأ عملية الاختيار للأهم منها، وتبدأ بعدها الخطوة المهمة، وهى عملية التحقيق. الذى هو مسئولية العلماء والهيئات الثقافية والجامعات والمجامع اللغوية والأدبية.

وهناك من بين مخطوطات التراث الأدبى موسوعات أدبية كبيرة، والعناية بهذه الموسوعات، من حيث نشرها محققة، ضرورة أدبية وحضارية إذ أن المادة الأدبية فى هذه الموسوعات كبيرة، بالإضافة إلى ما تمد به حضارتنا من معارف وثقافات وفنون وآداب الأمم الحضارية القديمة.

وكذلك لا ريب أن لدينا رسائل جامعية كثيرة، موضوعها تحقيق نصوص أدبية وكتب من التراث الأدبى.

ومن الواجب تصوير هذه الرسائل عن مختلف جامعاتنا، والعمل على نشرها لأهميتها، ولأنها تحقيقات تراثية موجودة فعلاً تحت أيدينا.

- ٣ -

ومن الضرورى أن نفكر جدياً فى حاجتنا الملحة إلى إنشاء معهد أو مركز قومى للتراث أو كلية جديدة تقوم من أجله ولخدمته، وتشرف على هذه المؤسسة الجديدة جامعة من جامعاتنا، أو وزارة من وزارات الدولة، أو المجالس القومية المتخصصة، ويلتحق بها خريجو كليات اللغة العربية والآداب والتربية، وكلية دار العلوم، وكلية اللغات والترجمة، وكلية الألسن ويمنحون مكافآت شهرية، تشجيعاً لهم، ولنحفزهم على الجد والمثابرة والبحث.

ويمكن لهذا المعهد أو المركز أو المؤسسة أن لا تقتصر على دراسة التراث الأدبى وتحقيقه ونشره فحسب. وذلك بأن ينشأ فيه كذلك قسم للتراث العلمى العربى بجانب قسم التراث الأدبى وتكون الدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات:

ففى السنة الأولى يدرس الطالب التراث الأدبى تاريخياً حسب عصوره كما يدرس مناهج التحقيق .. وفى العام التالى يدرس الطالب الجانب المصرى من تراثنا الأدبى،ويعمل مع أساتذته فى فهرسة هذا التراث الأدبى فهرسة دقيقة، ويتاح له السفر من أجل تصوير بعض المخطوطات من دور الكتب فى كل الجهات.

وفى العام الثالث يعمل الطالب فى فهرسة جانب من التراث الأدبى العربى العام، ويعمل كذلك بمكافأة مجزية فى دور الكتب المصرية فى القاهرة أو عواصم المحافظات لمدة شهر أو شهرين، وبعد ذلك يتاح له أن يكتب بحثاً للماجستير، وفى حالة إنشاء كلية للتراث يمكن ضم قسم الوثائق والمكتبات إليها واعتباره قسماً من أقسامها.

– ٤ –

ومن الضرورى تبادل صور المخطوطات بين مؤسساتنا الثقافية لتوفير العبء والجهد، ولتيسير اطلاع الباحثين والعلماء عليها، دون الحاجة إلى السفر إلى مظان وجودها.

والاسترشاد بجهود معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية أمر حتمى، إذ أنه عمل مقدوراً ومشكوراً فى ميدان تصوير بعض المخطوطات، ومن ثم يجب أن نحتذيه ونسير على منواله فى هذا المضمار، ومكتبة المعهد النفيسة التى تحتوى على الكثير من المصورات لمخطوطات تراثية يجب أن تنتقل إلى المركز المقترح إنشاؤه، ليستفيد منها طلابه.

ومن الواجب أن يكون لهذا المركز الجديد مجلة تراثية قوية محترمة خاصة بالدراسات التراثية، على نمط مجلة الفكر الكويتية، ومجلة المورد العراقية

وإن قلة أعداد المحققين والعاملين فى حقل كتب التراث اليوم. سوف تتغير بإنشاء المركز القومى للتراث، وتخريج طبقات وأجيال عديدة منه، عاماً بعد عام.

ولا ضير فى أن نطلق على هذا المركز اسم دار الحكمة إحياء لدار الحكمة التى أنشأها فى القاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى، مضاهاة لدار الحكمة التى أنشأها الأغالبة فى القيروان عاصمة الدولة فى عهدهم. ولدار الحكمة فى بغداد.

وفى الإمكان تدبير المال اللازم للانفاق على مثل هذا المركز عن طريق ميزانية تخصص لهذا الغرض وعن طريق الإعانات ونسبة منوية تحصل من دور النشر العاملة فى حقل التراث.

ولا يغنى عن مثل هذا المركز وجود دار الكتب الوطنية، أو إنشاء قسم فيها للتراث بحال من الأحوال، إذ إن المركز مهمته الكبرى - بجانب عمله فى تحقيق التراث - هى تخريج أجيال من المحققين والباحثين فى التراث والعاملين فى حقله، والاكتفاء بوجود دار الكتب سيؤخر العمل فى إحياء التراث أجيالاً، وبحسبنا أن كتاباً مثل الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى استغرق تحقيقه ونشره عن طريق القسم الأدبى فى دار الكتب المصرية نحو الأربعين عاماً، وبعض الكتب التراثية التى حققها القسم الأدبى لم يتم نشرها، وبعضها لم يتم تحقيقه كله حتى اليوم.

- ٥ -

ومناهج التحقيق كما هو معروف ترجع إلى :-

١ - المنهج العربى القديم، الذى يعنى بشرح نصوص الكتاب، وتحقيق رواياته وشواهده.

٢ - أو المنهج الغربى الاستشراقى، الذى يعنى عناية خاصة بتوثيق نص الكتاب التراثى، والإشارة إلى مخطوطاته، والمقابلة بين نسخه، والفهرسة الكاملة له.

على أنه يمكن الجمع بين المنهجين فى منهج واحد، يعنى بالشرح والتوضيح والتفسير، كما يعنى بالتوثيق والمقابلة والفهرسة جميعاً.

وفى نشر التراث يصح لنا أن نستفيد فيه من تجربة سلسلة الألف كتاب التى كانت تصدر عن إدارة الثقافة بوزارة المعارف كما كانت تسمى. أو وزارة التربية والتعليم كما أصبحت اليوم، والتى يعاد إصدارها فى هيئة الكتاب اليوم اد أن الطريقة التى سارت عليها السلسلة هى تكليف المكتبات الخاصة بالقيام بالنشر نظير دعم لها.

ومعاونة دار الكتب المصرية أمر ضرورى فى عمليات النشر والتوزيع، وهو جزء متمم للعملية كلها، والعناية بالمكتبات المتنقلة التى تتجول فى القرى والريف والمدن الصغيرة، والأحياء النائية، وكذلك تعميم البطاقات المعتمدة من كبريات المكتبات لشراء الكتب بخصم معقول وعلى أقساط شهرية مناسبة، وكذلك الإكثار من معارض الكتب فى الجامعات، وتقرير خصم كبير من أثمان الكتب المباعة للشباب والأطفال والمعوقين.. كل ذلك أمر ضرورى لا مندوحة عنه.

وصرف بعض المصادر الأدبية القديمة وبعض المراجع الأدبية الحديثة لطلاب اللغة والآداب ودار العلوم، على سبيل المكافأه، كالتقليد القديم الذى كان معمولاً به من قبل، أمر لا غنى لنا عنه لكل قسم أو كلية تتخصص فى اللغة العربية، تشجيعاً للشباب، وحثاً لهم على الاستزادة من المعرفة.

وتشجيع العاملين فى تحقيق التراث يقتضى السخاء فى معاملتهم المالية والأدبية.

ومن الضرورى الإشارة إلى أهم دور الكتب المعنية بالمخطوطات العربية التراثية ولكثرتها نكتفى هنا بالقليل منها:

- فى مصر:
  - دار الكتب المصرية.
  - مكتبة الأزهر الشريف.
  - معهد المخطوطات العربية.

- مكتبة بلدية الإسكندرية.
- مكتبة بلدية طنطا.
- مكتبة بلدية سوهاج.
- مكتبة الجامع الأحمدى بطنطا.
- مكتبة معهد دمياط الأزهرى.

♦ **فى البلاد العربية:**

- مكتبة جامع القرويين بفاس بالمغرب.
- مكتبة جامع القيروان بتونس.
- مكتبة جامع الزيتونة بتونس.
- المكتبة الوطنية بتونس.
- المكتبة الظاهرية بدمشق.
- مكتبة المجمع العلمى العربى بدمشق.
- مكتبة مجلس النواب العراقى - ببغداد.
- مكتبة المجمع العلمى العراقى - ببغداد.
- مكتبة الحرم المكى بمكة المكرمة.
- مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.
- دار الكتب بصنعاء.

♦ **فى تركيا:**

- مكتبات استامبول وهى غنية بالمخطوطات العربية.

♦ **فى الغرب:**

- مكتبة الاسكوويال بدمشق.
- مكتبة المتحف البريطانى.
- دار الكتب الوطنية بباريس.
- مكتبة لينجراد.
- مكتبة الكونجرس بواشنطون.

تراثنا بين الماضى والحاضر

- ١ -

الصحافة لسان الأمة، المعبر عن آمالها وآلامها، وعن شتى مقومات الوجود الإنسانى والحضارى فيها.

والتراث هو المميز أو المصور لوجود الأمة التاريخى والفكرى. وقد أثبتت مقومات التراث الأصلية فى تجربتها الإنسانية الأولى أنها حافزة دائماً إلى الإبداع الحضارى، حتى لقد ظل العقل الإنسانى قروناً كثيرة يبدع فى شتى مجالاته الممكنة من خلال تلك المقومات دون أن يكون هناك أى صدى لدعوى التناقض الحضارى بين تلك الأصول، وبين ذلك الإبداع الخلاق الذى تنامى عبر الزمن، بل إن الثابت أن حقيقة التراجع التى أصابت العقل العربى إنما وقعت عندما بدأ الانفصال يدب بين تلك القيم الأصلية ومعطياتها وبين الواقع.

التراث هو الهوية الثقافية للأمة، وهو مظهر لأصالة الأمة وحضارتها فالأصالة تتألف من عنصرين:

أولهما: التراثية أو المحافظة الواعية المتفنة بتعاطف إلى التراث: أصوله ونماذجه.

والثانى: الذاتية المبدعة.

وعن التراثية يقول لانسون: إن أمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة، وبؤرة للتيارات المعاصرة .. ويقول جوته: فى كل فن توجد صلة نسب، فإنك إذا رأيت فناناً كبيراً فلابد أنه قد وعى أحسن ما عند أسلافه، وأن هذا هو الذى جعله عظيماً، الرجال لا ينبثقون من الأرض. بل إنما يأخذون أصلهم من القديم .. ولذلك يقول "اليوت" إذا أردت أن تجدد فى الشعر فيجب أن تكون جذورك عميقة فى الماضى.

التراثية تصل الأدب بالأصالة، والأصالة تحتضن المعاصرة، إذا كانت بمعنى التجاوب المستمر مع الموقف الحضارى المعاصر، بحيث تتفاعل هذه المعاصرة مع الماضى بقيمه الباقية، ومواريثه الخالدة والشعورية على الدوام، حتى ليقول أحد النقاد الفرنسيين: الفن كله فى أن يهب الأدب الفكرة القديمة شكلاً جديداً، وهذه الفنية هى كل ما تملك البشرية جمعاء من ابتكار.

وإذا كان التراث له تلك الأهمية فى حياتنا، فى حاضرنا ومستقبلنا، وفى فكرنا وحضارتنا، فإن الصحافة عليها العبء الكبير فى المحافظة على التراث ونشره وزيادة وعينا به، وإلا لتخلت عن وظيفة من أكبر وظائفها.

فعناية الصحافة بالتراث نابعة من إيمانها بأنه جزء أصيل من حياة الأمة الفكرية، ومن ثم يكون لابد من أن يصبح وهو الشغل الشاغل للصحافة كوظيفة من وظائفها، والتزام من جوانب التزامها.

- ٢ -

ومن قبل كانت الصحافة فى مصر لا تبخل على التراث بنشر أخباره ولا بالكتابة عن بعض كتبه المنشورة أو المخطوطة، ولا بالدراسات عن بعض كتبه المحقق.

وكانت مجلة معهد المخطوطات الشهرية تعنى بكل ما يتصل بالتراث والمخطوطات عناية فائقة، ثم توقفت المجلة فى مصر، لتصدر فى الكويت من جديد.

ومن مجلاتنا ما لا تبخل بالنشر عن التراث وما يتصل به: كمجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة، ومجلة الأزهر التى تصدر ملحقاً شهرياً يكون عادة من كتب التراث المخطوطة، ومجلة الهلال، ومجلة الجمعية التاريخية.

ومن المجلات العربية التى قامت لخدمة التراث: مجلة المورد العراقية، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجلة المجمع العلمى العراقى.

ويجيء الإعلان في الصحف عن الكتب التراثية ليعوض ما نقص من حجم الدراسات للتراث. ولكتاب الأغاني وكتاب ألف ليلة وليلة قصب السبق في الاستحواذ على مختلف وسائل الإعلام.

على أن الصحف بدأت تجعل من صفحاتها ميداناً للخبر الصحفي، أكثر مما تجعل منها مجالاً لنشر المقالة التراثية أو غير التراثية .. وهذا معناه - إن غيرت الصحف جلدها، لتصبح صحافة خبر، لا صحافة رأي ومقالة - أن تتخلى الصحف عن واجبها التراثي .. وذلك ولا ريب لا يخدم قضية الثقافة بحال، ذلك أن جيل اليوم إنما سرى الضعف الثقافي والفكري إليهم من بعدهم عن التراث وعدم التصاقهم به، فما بالنا بجيل الغد الذي ستهمله الصحافة بإهمالها للدراسات التراثية.

وصارت الصحافة عندنا في مصر اليوم لا تتسع لدراسة الأعلام التراثية إلا من خلال قضية، كما لا تتسع بما تنشره من أخبار عن التراث وكتبه، عوضاً عما سوى ذلك من دراسات.

ولا غنى لنا عن إنشاء معهد عال أو كلية لدراسات التراث وتحقيقه ونشره، ولا عن إنشاء مجلات تراثية على نمط مجلة المورد العراقية مثلاً.

إن تراثنا العربي غني بكنوزه وبجواهره الثمينة النفسية، وبما أسداه للمعرفة الإنسانية من أفكار جديدة في شتى العلوم وجوانب الحياة - والعلماء ومراكز البحوث والجامعات في الشرق والغرب تعرف لهذا التراث قيمته وأهميته في الثقافة الإنسانية.

وعظمة جيلنا من الشيوخ والأجيال السابقة، التي خرجت أمثال حسن العطار، ورفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك، ومحمد عبده، وحفني ناصف، والمراغي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمود شلتوت، والمنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي، والزيات، وأحمد أمين وزكي مبارك ومحمد لطفي جمعة، والعقاد، وطه حسين، وعبد العزيز البشري، ولطفي السيد، وأحمد شوقي، وحافظ، وأحمد زكي أبو شادي، وناجي، وأحمد محرم، وسواهم من الأعلام والرواد. إنما يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى التراث، والعناية به والتزود من معين ثقافاته.

والتراث الإسلامي حافل بالموسوعات الضخمة في شتى علوم الشريعة والفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد .. .. والتراث التاريخي يحفل بكتب نالت شهرة عالمية، من مثل: تاريخ الطبري والمسعودي وابن الأثير والبغدادي وابن خلدون والمقريزي والسيوطي وسواهم .. وفي التراث البلاغي والنقدي نقف مذهولين إمام موازنة الآمدي، ووساطة الجرجاني. وأسرار الفصاحة لابن ستان، والعمدة لابن رشيق. ونقد الشعر لقدامة. والصناعتين لأبي هلال، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني، والمثل السائر لابن الأثير. وفي الموسوعات الأدبية لا نجد أروع من كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه وأبي الفرج الأصفهاني والحصري وسواهم.

وفي القصص والأسمار نجد أمثال: البخلاء للجاحظ وألف ليلة وليلة، ونشوار المحاضرة والفرج بعد الشدة للتنوخي، وقصة أبي زيد وعنترة والظاهر بيبرس وأعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس للاتليدي وفي الشعر مئات الدواوين الشعرية الرفيعة الخالدة.

وهكذا في مختلف جوانب العلوم والثقافات.

إن تراثنا العربي هو جزء من ثقافة الانسانية، ولقد كنا - في مرحلة التعليم نحفظ مقامات الحريري والهمداني، وتطيل القراءة في الكامل للمبرد، ونهج البلاغة للإمام علي، وفي البيان والحيوان للجاحظ، والأمالي للقالي والعقد الفريد وعيون الأخبار.

وهذا فضلاً عن أن الكثير من الكتب الدراسية كانت مملوءة بعيون التراث، نستظهر منها جياد القصائد، وحسان الخطب والمقامات، الى ما كنا نحفظه من دواوين الشعراء.

أما اليوم فقد صارت مناهج الدراسة خلوا من كل ما يتصل بالتراث، لأنها مناهج غربية اصطنعناها لأنفسنا منذ عهد الاحتلال وبقيت بعد عهد الاحتلال. لتلوى أعناقنا، وتحجب أبصارنا عن التراث وثقافاته، مما نتج عنه ضعف الشباب في ثقافته العربية ضعفاً مزرياً، وقد اكتفى الشباب العربي بكتب الدراسة الضئيلة، وانصرفوا عن

التراث ومصادره جملة، وصحافتنا مطالبة اليوم بالعودة إلى مزيد من الدعوة إلى تحقيق التراث ونشره، وجعله جزء أصيلاً من مناهجنا الدراسة.

ويا حبذا لو تحولت مجلة فصول القاهرية إلى مجلة تراثية لتضمن ذيوعها وتضمن مع الذيوع الربح بدلاً من أن تظل عبئاً على الهيئة العامة للكتاب وعلى موارد الدولة.

وعسى أن تعود الكتب التراثية إلى حلقات الدراسة فى جامعاتنا المختلفة وأن تصبح كتبا مقررة، وأن تشجع دور النشر المعنية بالتراث ولو بتخفيض الضرائب عليها بنسبة مهما كانت ضئيلة كخمسة فى المائة مثلاً، كما نرجو أن تستقل دار الكتب المصرية عن الهيئة العامة للكتاب وأن يعود القسم الأدبى فى دار الكتب من جديد ليعمل فى خدمة التراث وتحقيقه. فذلك كله من الروافد الفعلية للصحافة لكى تستطيع أداء واجبها نحو التراث.

إن الثقافة المعاصرة لا بد لازدهارها من الحرص الكامل على الأصالة وعلى المعاصرة معاً.

وبدون الأصالة لا يبقى للمعاصرة سند قوى يدعمها ويشد من أزرها.

وعسى أن نرى صفحة أسبوعية تراثية فى صحفنا تقدم للقراء كل ما يجب أن يقرأوه من كل ما يتصل بالتراث وثقافته الأصيلة المتميزة. إننا لم نعد نقرأ فى صحفنا شيئاً عن أعلامنا التراثيين، ولا عن كتبنا التراثية، ولا عن الفكر التراثى العربى الإسلامى وصلته بالثقافة المعاصرة بينما كان ذلك كله ركناً كبيراً من أركان صحافتنا فى الربع الثانى من القرن العشرين.

والملحوظ أن ضعف الجيل الجديد فى الثقافة إنما يرجع أولاً إلى بعده عن التراث وانعدام قراءاته فيه.

فإذا كنا نريد نهضة ثقافية جديدة، فان الواجب الملقى على عاتقنا يحتم علينا أن نعنى عناية كبيرة بالتراث وثقافاته وأن نصل بين التراث وبين الشباب بصلات وثيقة عن طريق مختلف وسائل الإعلام. وبخاصة الصحافة.

القسم الثانى

مصادر تراثية مشهورة

الأصعمى وشخصيته:

"أما أبو عبيده فإذا مكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين .. وأما الاصمعى فبلبل يطربهم بنغماته" أبو نواس.

أبو سعيد الأصمعى عبد الملك بن قريب الباهلى البصرى من أجل الرواة والأدباء والنقاد فى القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى[1].

نشأ بالبصرة، واختلف إلى حلقاتها العلمية الحافلة، كحلقة أبى عمرو ابن العلاء (١٥٤هـ / ٧٧١م)، وحلقة سيبويه (١٨٩هـ / ٨٠٥م)، وحماد بن سلمة، وسواهم.

وكان أثيراً لدى أستاذه أبى عمرو بن العلاء الراوية البصرى، وحمل علمه ورواياته ومذهبه فى الأدب من بعده.

وكثرت رحلاته إلى البادية، يشافه الأعراب، ويروى لهجاتهم وأشعارهم وطرفهم، والكثير من أخبار الأدب عنهم حتى صار شيخ الرواة فى البصرة.

وكان يقول: "حفظت ستة عشرة ألف أرجوزة"، وهذا إلى جانب ما كان يحفظه من قصائد وأخبار ومأثورات. وصار للأصمعي حلقة كبيرة فى البصرة، يجلس فيها الكثير من شباب هذه المدينة الزاهرة، ممن صاروا بعد قليل من أعلام الأدب والشعر والبيان: كالجاحظ (٢٥٥هـ - ٨٦٧م) والرياشي (٢٧٥هـ - ٨٨٨م) واليزيدى

---

[1] راجع فى ترجمته: ١٥٠ - ١٧٢ نزهة الألباء لابن الأنبارى، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤١٠/١٠ - ٤٢٠، مرآة الجنان لليافعى ٦٤/٢ - ٧٧، بغية الوعاة للسيوطى ٢٣٣، طبقات الزبيرى رقم ٩٤، ١٤٧/٣ - ١٤٩ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان. ٢٩٨/٢ ضحى الإسلام لأحمد أمين، فحولة الشعراء للأصمعى.

(٢٠٢هـ - ٨١٧م) وأبى حاتم السجستانى (٢٥٠هـ - ٨٦٤م) والقاسم بن سلام (٢٢٣هـ-٨٣٧م) ومحمد بن سلام (٢٣١ - ٨٤٥م) وسواهم.

وكان الأصمعي فى مطلع حياته يعيش فى فقر شديد، فأشار محمد ابن سليمان العباسي أمير البصرة على الرشيد أن يجعل الأصمعي مؤدبًا لبنيه، فاستدعاه الرشيد إلى بغداد عاصمة ملكه، فلبى الدعوة وأقام فى بغداد وفى مجالس الرشيد تألقت مواهبه. وظهرت عبقريته. حتى كان الرشيد يناظره ويستمع إلى طرئفه ومذخور أدبه وروايته، ويأخذ بقوله فى الشعر والنقد، ويسميه "شيطان الشعر". وكانت الأحداث التى مرت بالأصمعي تزيد من ألق مواهبه، فلقد عاصر الكثير من أعلام المفكرين والأدباء والشعراء والرواة، وشاهد نهايات الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين، وعاش الأيام كلها فى عهد السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد.

وكان يمتاز بحلاوة الحديث، وجمال التعبير، وطلاوة الأسلوب، حتى كان الإمام الشافعى (٢٠٤هـ - ٨١٩م) يقول عنه "ما عبر أحد من العرب بأحسن من عبارة الأصمعي".

وصار الأصمعي شيخ البصريين فى الأدب والرواية، ولم يكن ينافسه إلا أبو عبيدة (١١٤ - ٢١٣هـ)، وكثيرًا ما كان الرشيد يجمع بينهما فى مجالسه للمناظرة، ويقول أبو نواس وقد سئل عنهما: "أما أبو عبيدة فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين .. وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته"!

وكان الأصمعي حافظًا رواية عالمًا بارعًا فطنًا بأشعار العرب وأخبارهم، كثير التطواف بالبوادى لاقتباس علومها وتلقن أخبارها من غرائب الأشعار، وعجائب الأخبار واستولى على الغاية فى حفظ اللغة واللهجات ورواية النوادر.

والأصمعي كما أنه صاحب أول كتاب فى النقد له نظريات كثيرة فى الأدب والنقد أيضاً:

١- فهو صاحب نظرية "عبيد الشعر" فى العصر الجاهلى وعصر المخضرمين.

٢- وهو صاحب نظرية أن الشعر كان قوياً جزلاً فى الجاهلية فلما جاء الإسلام لان وضعف.

٣- وهو صاحب نظرية تنقل الشعر فى القبائل العربية.

٤- وهو صاحب نظريـة أن الاحتجاج بكلام العرب يمتد حتى عام ١٥٠هـ فى المدن، ونحو عام ٣٠٠هـ فى البادية، فالعرب الذين يوثق مربينهم ويستشهد بكلامهم إلى نصف القرن الثانى الهجرى هم عرب الأمصار أما عرب البادية وأهل البدو من الجزيرة العربية فيستشهد بكلامهم حتى نهاية القرن الرابع الهجرى.

فعصر الاحتجاج اللغوى يمتد من الجاهلية القريبة من الإسلام إلى أواسط القرن الثانى الهجرى (١٥٠هـ).

وأول الشعراء المحدثين بشار(١٦٧هـ) يقول الأصمعى: ختم الشعر بابن هرمة (-١٥٠هـ) وهو آخر الحجج.

ويقول كذلك ساقة الشعراء ابن ميادة الرماح (-١٤٩هـ) وابن هرمة (-١٥٠هـ) ورؤبة (-١٤٥هـ) والحكم الخضرى (-١٥٠هـ) ومسكين العذرى (-١٦٠هـ).

ويردد أبو الفرج صاحب الأغانى رأى الأصمعى فيقول: ختم الشعر بابن هرمة[٢].

وهذا هو رأى السكندرى، ويلاحظ أن الألفاظ المعربة مثل سندس وإستبرق يرى أبو عبيدة أنها عربية وليست بمعربة، بينما يرى غيره أنها فى الأصل معربة عربتها العرب فهى عربية باستعمال القرآن لها وأعجمية فى الأصل. ويسير الشيخ أحمد شاكر على رأى أبى عبيدة.

والنحاة لم يستشهدوا بالحديث النبوى إلا نادراً جداً، ومنهم سيبويه وذلك لأن المحدثين أجازوا نقل الحديث بالمعنى دون اللفظ، ولأن رواة الحديث منهم أعاجم مما تسبب فى وجود لحن فيما روى عنهم من الحديث. وأول من أكثر من

---

(٢) راجع رمضان عبد التواب: عصر الاحتجاج اللغوى إلى نهاية القرن الثانى مقال منشور فى مجلة منبر الإسلام - عدد صفر ١٤٢٢هـ.

الاستشهاد بالحديث ابن خروف الأندلسي (-٦٠٩هـ)، وقد أنكر عليه ذلك ابن الضائع (-٦٨٠هـ).

شهادة عصره له:

يقول عنه تلميذه أبو حاتم: إنه أروى الناس للزجر، ولا تكاد تجد مصدراً من مصادر اللغة والأدب والشعر إلا روى له، وأخذ منه، واحتفى بروايته ..

وكان إسحاق الموصلي (٢٣٥هـ ٨٤٩م) يتتلمذ له، ويأخذ عنه، ويعظمه، ويقول فيه: ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. ولا أحفظ لجيده، ولا أحضر جواباً منه. **ونوه به وبأمانته العلمية الكثير من أعلام الفكر الإسلامي: كالشافعي وأحمد بن حنبل، وغيرهما.**

وكان الخليفة المأمون يجله ويكبره، واستدعاه إلى بغداد فاعتذر بضعفه وشيخوخته، فكان يبعث إليه بما يعن له من مسائل يأخذ فيها برأيه، فيرد من الأصمعي الجواب عليها. وفضل خلفاً الحمر الكوفي (١٨٢هـ – ٧٩٨م) في علم الشعر ونقده، وهو شيخ الرواة في اللغة والنوادر وعجائب الأخبار[٣].

وتوفي في خلافة المأمون بالبصرة، وبعد أن ترك ذكراً مدوياً، وعلماً غزيراً.

وترك الأصمعي مؤلفات كثيرة، بعضها لا يزال مخطوطاً، ومنها: كتاب معاني الشعر[٤]، كتاب الأجناس، والأنواء، والصفات، والميسر والقداح، وجزيرة العرب، وكتاب الغريب المخطوط في الأسكوريال، وكتاب رجز العجاج المخطوط بدار الكتب المصرية.

---

[٣] ٩٦/٤. شرح الشريشي لمقامات الحريري، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. ١/ ٥١٦ وفيات الأعيان لابن خلكان.

[٤] ١٨٢ الفهرست لابن النديم.

فحولة الشعراء:

١ - من أشهر كتب الأصمعى كتاب "فحولة الشعراء" الذى نقدمه فى هذه الدراسة.
وهو من أطرف ما وصل إلينا من تراث الأصمعى النقدى، بل أقدم كتاب عربى فى النقد. وفى القاهرة منه مخطوطتان:

الأولى: ضمن مجموعة برقم ١١٨١ مجاميع أباظة ٧٣٢٣ – مكتبة الأزهر.

والثانية: نسخة مخطوطة أخرى فى المكتبة التيمورية نسخت عام ١٣٣٩هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالباً.

وقد نشره تورى، ثم طبعته فى القاهرة عام ١٩٥٣ بتحقيق علمى دقيق والكتاب برواية تلميذه أبى حاتم السجستانى العالم اللغوى الثقة، ونهجه نهج الحوار والمساءلة، يسأل أبو حاتم أستاذه الأصمعى عن أحد الشعراء: هل هو فحل أو لا؟، أو هل هو من الفحول؟، فيجيبه الأصمعى برأيه فيه، مستدلاً على الحكم النقدى الذى يصدره ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة، تسلكه فى عداد الفحول من الشعراء، وينبه على الشاعر الذى لم يبلغ هذه المنزلة، مبيناً تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال، حتى يصير فحلاً، وفى بعض الأحيان يتهكم الأصمعى بالشاعر الذى يصدر حكمه عليه وعلى شعره تهكماً لاذعاً ..

وقد يبالغ الأصمعى فى الحكم أحياناً فيقول: ليس فى الدنيا مثل هذا البيت أو مثل هذه القصيدة!.

٢- وفحولة الشعراء أو فحولهم هم الذين جمعوا الجودة والمزية على غيرهم من الشعراء كمزية الفحل على سواه، أو الذين غلبوا على من هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة الذى عارض امرأ القيس وحكم له بالغلبة عليه.

ونعنى بالفحول باصطلاحنا الحديث أعلام الشعراء وموهوبيهم ممن حظوا بتقدير النقاد وإجلالهم.

الجانب النقدى فى الكتاب:

وفى هذا الكتاب لم يترك الأصمعى شاعرا جاهليا أو مخضرما أو إسلاميا إلا أبدى رأيه فيه فى صراحة وعدالة.

وتمتاز أحكام الأصمعى النقدية بالجرأة والشجاعة، فهو مثلا يعد الأعشى الشاعر الجاهلى المشهور ليس من فحول الشعراء، وكذلك صنع مع عمرو بن كلثوم، وعدى بن زيد، ولبيد، ومهلهل، وهم من أعلام الشعر الجاهلى. ويعد عمر بن أبى ربيعة مولدا، وكذلك الكميت الأسدى وعبيد الله بن قيس الرقيات، ويضع زعامة الشعر الجاهلى فى يدى النابغة وامرئ القيس، مع ما فى الأصمعى من روح العصبية للشعر الجاهلى وللجاهلين حتى ليسأل عن مكانة جرير والفرزدق والأخطل، فيقول: "هؤلاء لو كانوا فى الجاهلية كان لهم شأن".

يفضل الأصمعى النابغة الذبيانى على سائر الشعراء الجاهليين ويراه أول الفحول .. ثم يستدرك على هذا الحكم لمكانة امرئ القيس فى الشعر فيقول: بل أولهم كلهم فى الجودة امرؤ القيس له الحظوة، وله السبق، وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه. وهو أول من بكى الديار.

وهو على أية حال شديد التعصب للنابغة يراه أشعر الناس، ولا يقدم عليه أحدا إلا امرأ القيس، والنابغة عنده أشعر من زهير، وزهير فى رأيه لا يصلح ان يكون أجيرا له، بل أن أوس بن حجر أشعر من زهير.

وهناك شاعر جاهلى آخر اعتد بشعره، وأعلى من منزلته، وهو طفيل الغنوى (توفى ١٣ ق. هـ.) الذى رآه أشعر من امرئ القيس، مع أخذ طفيل من امرئ القيس، وكان طفيل كما يقول الأصمعى – يسمى "محبرا" لحسن شعره. ويقول الأصمعى: ان كثيرا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه، ويذكر منهم عمرو بن قميئة رفيقه فى رحلته إلى قيصر.

ومن الشعراء الذى نفى الفحولة عنهم: الراعى النميرى الشاعر الأموى المشهور (٩٠هـ – ٧٠٨م).

وقال عن لبيد الشاعر الجاهلى صاحب المعلقة المشهورة "عفت الديار .." (توفى عام ٤١هـ / ٦٦١م) أنه ليس بفحل وشعره كأنه طيلسان طبرى[٥] يعنى أنه جيد الصنعة وليس له حلاوة.

ويذكر كعب بن زهير صاحب القصيدة المشهورة فى مدح الرسول ﷺ، ويرى أنه ليس فحلاً (وكعب توفى عام ٢٤هـ / م ٦٤٤م).

وكان يفضل جريراً على الفرزدق. ويتعصب له، ويقول: إن تسعة أعشار الفرزدق مسروق وقد علق المرزبانى فى "الموشح" على هذا الرأى وقال: إن هذا تحامل شديد من الأصمعى على الفرزدق لهجائه باهلة قبيلة الصمعى.

وكعب بن سعد الغنوى شاعر أموى يقول فيه الأصمعي إنه ليس من الفحول إلا فى المرثية التى رثى بها أخاه.

ويقول عن هذه المرثية إنه ليس فى الدنيا مثلها.

ويقول فى جعفر البارقى وهو من صعاليك الشعراء فى العصر الأموى: إنه لو أتم خمساً أو ستاً من القصائد كان فحلاً .. وكذلك قال فى ثعلبة بن صعير المازنى: لو قال مثل قصيدته الرائية – التى رواها له المفضل الضبى فى كتابه "المفضليات" – خمساً من القصائد، كان فحلاً .. وكذلك قال الحويدرة الشاعر المخضرم.

ويقدم الأصمعى ليلى الأخيلية (ت ٨٠هـ – ٦٩٩م) على الخنساء (٥٤هـ – ٦٧٣م).

ويرى أن بشاراً (ت ١٦٧هـ – ٧٨٣م) خاتمة الشعراء، ويفضله على مروان بن أبى حفصة (ت ١٨٠هـ – ٧٠٦م) لأن مروان سلك طريقاً كثر سالكوه، وبشار سلك طريقاً لم يسلكه أحد، وانفرد به، وأحسن فيه، وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر، وأكثر بديعاً.

---

[٥] أى من صنعة طبرستان وكانت مشهورة بصنعها.

متى ألف الكتاب؟:

وأرجح أن الكتاب ألف نحو عام ١٩٢هـ. والأصمعي في الخامسة والأربعين، وتبدو أهميته في أنه في نظرنا يعد اقدم المصادر العربية في النقد والحكم على الشعراء. وكان المعروف من قبل أن أقدم المصادر العربية في النقد هو كتاب "طبقات الشعراء" لابن سلام الجمحي (٢٣١هـ / ٨٤٥م).

الذى ألفه نحو عام (٢١٧هـ) وبظهور كتاب "فحولة الشعراء" تتقدم مصادرنا النقدية نحو ربع قرن من الزمان.

أول مصادرنا النقدية:

كان الباحثون يرون أن "طبقات الشعراء لابن سلام" أول مؤلف النقد[1]. فلما ظهر كتاب الأصمعي ونشر وقرأه الدارسون عادت أولية المصادر المؤلفة في النقد الأدبي في لغتنا العربية إلى كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي وأصبح هذا الكتاب هو أول مصادرنا النقدية القديمة، وعاد كتاب ابن سلام "طبقات الشعراء" هو المصدر التالي له.

وفي الحقيقة أن الأصمعي هو الأستاذ الأول للنقاد العرب جميعاً، والثروة النقدية التي تضمنها كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، مما ينسب على الأصمعي، ثروة كبيرة لو جمعت كلها لوضعت الأصمعي في أعلى مكان في النقد العربي، ولأبانت عن فضله وسبقه ومواهبه النقدية.

وإذا كان أستاذه أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية كما يقول الجاحظ في "البيان والتبيين" (١ : ٢٠٩)، فإن الأصمعي كان أعلم الناس بالشعر وجوهره وجيده من رديئه، وكان دقيق الحكم على الشعراء، مصيباً في نظره النقدي وأحكامه على شعرهم.

---

[1] ١٠٨/٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه إبراهيم.

الحركة النقدية فى عصر الأصمعى:

يذكر ابن سلام فى كتابه "طبقات الشعراء" أن لأهل البصرة قدما ثابتة فى العربية، وقد بدأ النقد اللغوى فيها على أيدى مثل ابن أبى إسحاق الحضرمى (-١٥٠هـ) أساسا لحركة النقد الأدبى فى البصرة التى ظهرت على يدى الأصمعى الذى خطا خطى أستاذه أبى عمرو بن العلاء، ونهجه، وسار فى دربه، وغرف من بحره وكان أبو عمرو أشد الناس تسليما للعرب. أما الكوفة فقد انفردت بجمع الشعر وتدوينه وكان حماد أول من جمع الشعر، كما كان قتادة مرجعا للناس فى روايته. ولما ظهر خلف الأحمر نهضت حركة النقد فى الكوفة، ثم سارت مع حركته فى البصرة فى خطى متقاربة.

والأصمعى يعتد بمنزلته فى النقد اعتدادا كبيرا، يروى أنه وهو فى بغداد فى زمن الخليفة الرشيد عرض بعض الشعراء عليه شعرا رديئا، فبكى الأصمعى، ولما سئل عن سبب بكائه، قال: يبكينى أنه ليس لغريب قدر، لو كنت ببلدى البصرة ما جسر هذا أن يعرض علي هذا الشعر وأسكت عنه.

وهو صاحب الأحكام النقدية المشهورة على مدرسة "عبيد الشعر" وصاحب نظرية تنقل الشعر فى القبائل العربية فيروى أن الشعر كان أولا فى اليمن، ثم صار إلى ربيعة، وصار بعدها فى قيس، وجاء الإسلام فصار تميم. وصاحب كثير من النظريات الأدبية والنقدية التى أخذت عنه، ورجع فيها النقاد إليه.

مذاهب النقاد فى القرن الثانى:

ولقد نشأ فى القرن الثانى الهجرى مذهبان فى النقد: مذهب يتعصب للجيد ممن كان وفى أى زمن كان.

ومذهب يتعصب للقديم الجاهلى ولا يفضل عليه شيئا.

وكان الرواة كالأصمعى وأبى عبيدة وأبى عمرو بن العلاء أستاذهما من البصريين، وكحماد وخلف منزلتهما فى النقد، وخلف يجمع كثيرا من الآداب[٢]

---

[٢] ٣/٢٢٤ البيان والتبيين للجاحظ.

وكان كثير الشعر جيده[٨]، وكان يفضل شعراً لمروان بن أبي حفصة على شعر للأعشى[٩].

والكثيرون لا يجرون مع خلف في حلبة النقد، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها، وحذقه بها، وإجادته لها[١٠]

التعصب للشعر الجاهلي:

وكان خلف وتلاميذه من مدرسة الكوفة يتعصبون للجيد وحده. بينما كان أبو عمرو بن العلاء يتعصب للقديم الجاهلي وحده ويرى فيه النموذج الفني الأكمل. ويفضله على غيره، وقال عن الأخطل: لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا.

وقال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج – سنين – فما رأيته يحتج ببيت إسلامي. وكذلك نهج تلميذه الأصمعي منهجه، فقال عن الفرزدق وجرير والأخطل: لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن.

ومن نظرية أبي عمرو بن العلاء وتلميذه الأصمعي في التعصب للشعر الجاهلي والغلو في الإنكار على المحدثين وشعرهم، نشأت نظرية عمود الشعر العربي عند الناقد الجليل أبي الحسن الآمدي – (٣٧١هـ / ٩٨١م) صاحب كتاب "الموازنة بين الطائفيين – أبي تمام والبحتري – في شعرهما"، الذي يعد من أروع كتب النقد العربي القديم، وقد سبق الآمدي في اعتناق هذه النظرية أدباء ونقاد كثيرون ولكن الذي فصل الكلام عليها، وطبقها على شاعرين مشهورين مثل أبي تمام والبحتري، هو الآمدي. وأساس "عمود الشعر" هو الرجوع إلى القيم الفنية القديمة الموروثة من الشعر الجاهلي، واتخاذها منهجاً يتحكم إليه النقاد في الشعر والشعراء، والحكم عليهم بالجودة أو الرداءة.

---

[٨] ٣٠٨ الشعر والشعراء لابن قتيبة.

[٩] ٤٠٣/٣ العقد الفريد لابن عبد ربه.

[١٠] ١٩٧/١ العمدة لابن رشيق – تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

أهمية الكتاب:

ولاشك أن كتاب "فحولة الشعراء" لأبى سعيد الأصمعى قد صار مصدراً لكثير من الآراء النظرية بعد الأصمعى، وبعد عصره. ويأخذ منه الناقدون، ويرجعون إليه، ويحتفون برأيه، فإذا قال الأصمعى – مثلاً – فى طفيل الغنوى الشاعر الجاهلى (١٣ ق. هـ. / ٦١٠م) إنه كان يسمى "محبرا" لحسن شعره وجدنا ذلك عند النقاد فى القرن الرابع والخامس الهجرى كابن رشيق صاحب "العمدة" ومن قبله المرزبانى صاحب "الموشح" و"المؤتلف والمختلف"، و"معجم الشعراء".

ويستمر صدى الأصمعى وكتابه وآرائه النقدية فى جميع مصادر الأدب العربى، وعند جميع النقاد القدماء، زمناً بعد زمن، وجيلاً بعد جيل، لأن الأصمعى كان له التراث العربى النقدى كبير وزن، وكان له فضل أولية وأستاذية.

طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين
لأبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى البصرى

شخصية ابن سلام:

نشأ ابن سلام (عام ٢٣١هـ) فى بيئة البصرة العلمية الحافلة، التى كانت أكبر مراكز الحياة العقلية العربية. وكان عمران البصرة قد أخذ فى الاتساع، والحياة فيها تزدهر وتغلب عليها الصبغة الحضارية. ونبغ منها فحول العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء. وفى القرن الثانى كان ثراء البصرة بالغاً غاية ما يتصور، واتسع البصريون فى المال والتجارة، وبرزت المدينة فى الميدان اللغوي، لتبحرها فى العمران والثقافة، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة، وقد اشتهرت هذه المدينة بمربدها، الذى كان فى الإسلام سوقاً أدبية كبيرة كسوق عكاظ فى الجاهلية. والمربد: ضاحية من ضواحي البصرة فى الجهة الغربية منها، مما يلي البادية، بينه وبين البصرة ثلاثة أميال، وكان سوقاً عامة للإبل والتجارة أولاً، ثم للغة والشعر والنقد والبلاغة أخيراً، فأصبح صورة لعكاظ، فهو سوق للتجارة وسوق للدعوات السياسية، وسوق للآداب، وصار المجتمع العربي من مختلف العواصم يتناشدون فيه القصائد، ويروون عن أعرابه طرائف الأخبار والآثار. وزخر المربد بالشعراء، فكان لجرير فيه حلقة، وللفرزدق حلقة، وكذلك كان للعجاج ولذي الرمة، وغير هؤلاء، حلقات ينشدون فيها أشعارهم، وحولهم الناس يسمعون منهم، ويروون عنهم، وكان شباب البصرة يخرجون إليه لتلقى الأعراب ومشافهتهم والأخذ عنهم وتدوين بلاغاتهم، يقول أبو نواس (١٤٥ - ١٩٨هـ): "بكرت إلى المربد ومعي ألواحى أطلب أعرابياً فصيحاً". ويقول الجاحظ: أدركت رواة المسجديين والمربديين.

وفى هذه البيئة العلمية نشأ ابن سلام، فأخذ عن حماد بن سلمة وعن الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠هـ)، وعن كثير من العلماء.

ومن مربد البصرة، وحلقات المسجديين، ودروس العلماء، ومشافهة الأعراب، وأحاديث البلغاء، ومجالس الفصحاء أخذ ابن سلام الكثير من ضروب العلم والمعرفة فتخرج عالماً أديباً متذوقاً ناقداً، أميناً فى الرواية، حريصاً على الإفادة والاستفادة، حتى لقد روى عنه الإمام أحمد بن حنبل (٢٤٠هـ)، وأبو العباس ثعلب (٢٩١هـ) وغيرهما من أئمة الدين واللغة والأدب. كما يقول ابن الأنبارى (٥٧٧هـ) فى كتابه نزهة الألباء فى طبقات الأدباء"، وقد استشهد بآرائه، ورجع إليه فى تعيين طبقات كثير من الشعراء أبو الفرج (٣٥٦هـ) فى كتابه "الأغاني"، وأبو على القالى (٣٥٦هـ) فى كتابه "الأمالى"، والزجاج فى أماليه أيضاً، وعول عليه كل النقاد: كابن قتيبة (٢٧٦هـ) فى "الشعر والشعراء"، وابن رشيق (٤٥٦هـ) فى "العمدة"، وسواهما، وذكره مؤلف كتاب "كشف الظنون" فى مقدمة من كتبوا فى طبقات الشعراء.

وهكذا كان هذا الراوية العالم بالشعر، المؤلف فى نقده، والذى عاش فى النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والثلث الأول من القرن الثالث، حيث درس وتثقف، وأحاط باللغة والآداب والأشعار، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عره فى الاستيعاب والشرح والتحليل، وألف كتاب "طبقات الشعراء الجاهليين"، وكتاب "طبقات الشعراء الإسلاميين" اللذين جمعا فى كتاب واحد باسم "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين"، أو باسم "طبقات فحول الشعراء". ويبدو أن المقدمة المطبوعة فى أوله فى طبعة المكتبة المحمودية هى مقدمة كتاب "طبقات الشعراء الإسلاميين"، يرشد على ذلك الكثير من النصوص التى وردت فى هذه المقدمة كقوله: "ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات، كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام". وقد حقق الأستاذ محمود شاكر الكتاب تحقيقاً علمياً فريداً، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى (٣٠٥هـ)، الذى ينوه الحصرى فى "زهر الآداب" بأدبه وبلاغته.

بحوث الكتاب:

فى مقدمة الكتاب الحافلة بالآراء النقدية، يذهب ابن سلام إلى أن الشعر صناعة وثقافة، وأن الذى يعرفه ويميّز بينه هم نقاده الخبيرون به، وعدد ألواناً من جهل العلماء بالنقد، وبالشعر. ومنهم ابن إسحاق (١٥٢ هـ) الذى روى شعراً على ألسنة رجال لم يقولوا الشعر قط، ثم جاوز ذلك، فروى شعراً على لسان عاد وثمود، مع وضوح الدلائل على إن هذه الأمم البائدة لم يبق أحد يستطيع أن يروى لها أو عنها. على إن إسماعيل عليه السلام كان أول من تكلم العربية، واليه تنسب العرب كلهم الا حمير وبقايا جرهم، حتى كان أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) يقول: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا. ويذكر ابن سلام أن لأهل البصرة قدماً ثابتة فى العربية ولغات العرب، وكان أبو الأسود (٦٨هـ) أول من انهج سبيل العربية، ووضع قياسها، وعلى أثره سار تلاميذه: يحيى بن يعمر، ثم ابن أبى إسحاق الحضرمي، الذي كان أول من مد القياس والعلل، ثم أبو عمرو ابن العلاء. وكان ابن أبى إسحاق أشد تجريداً للقياس، وأبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتهم. وظهر عيسى بن عمر، فأخذ عن ابن أبى إسحاق، كما أخذ عن يونس، وعن أبى عمرو، وكان ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان على لغة العرب، من حيث كان عمرو أشد تسليما لهم. وكان مذهب البصريين فى النحو لا يقبل إلا القياس ويرفض ما عداه، فكان نقدهم اللغوى النحوى أساساً لحركة النقد الأدبى فى البصرة.

وظهر الخليل بن أحمد، فابتكر العروض، ثم جاء خلف الأحمر (١٨٢هـ)، وكان أفرس الناس ببيت شعر، وأصدقهم لساناً ثم أبو عبيدة (٢٠٨هـ)، والأصمعى (٢١٦هـ)، والمفضل الضبى (١٨٩هـ). وكان يونس يجعل عيوب الشعراء أربعة: الإبطاء، والإكفاء، والسناد، والزحاف.

وتناولت المقدمة – فيما تناولت– الشعر العربى ونشأته وتطوره وتنقله فى القبائل، وانتحاله.

وقد رتب ابن سلام في كتابه الشعراء الجاهليين والإسلاميين في منازلهم وأساس ذلك هو قول السلف فيهم، ثم اجتهاد العلماء ورأيهم، وإن كان للقبائل وعصبينها لشعرائها أثر في ذلك.

ويذكر ابن سلام في مقدمة الكتاب ضياع الكثير من نصوص الشعر الجاهلي، ومن أدلة ذلك: ضياع الكثير من شعر طرفة بن العبد، ومن شعر عبيد، وكان من اقدم الشعراء، ويستطرد إلى أن القصائد إنما قصدت في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وأول من قصد القصائد الشعرية هو المهلهل بن ربيعة.

وفي تنقل الشعر في العرب يذكر ابن سلام أن الشعر كان في ربيعة، ثم تحول في قيس. ثم آل إلى تميم، وحماد الرواية (١٥٦هـ) هو أول من جمع أشعار العرب، وروى أحاديثها. وكان قتادة مرجعا للناس في رواية الشعر.

طبقات الجاهليين:

ويعرض ابن سلام للطبقة الأولى من شعراء الجاهليين، وهم:

امرؤ القيس، والنابغة وزهير والأعشى، ويقدم الكثير من النقاد امرؤ القيس، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى، وأهل الحجاز يقدمون زهيراً والنابغة، وكان ابن أبي إسحاق يقدم المرقش من الجاهليين، وكثيراً من الإسلاميين، وكان عمر بن الخطاب يقدم زهيراً لأنه كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، وكذلك كان جرير يقدمه في الجاهليين ويمدح الفرزدق في الإسلاميين، ويقول: "زهير شاعرهم، والفرزدق تبعه الشعر، والاخطل يجيد مدح الملوك وصفة الخمر"، ويقول عن نفسه: إني نحرت الشعر نحراً، وكان خلف يعجب بالأعشى، وكذلك كان ابن أبي العلاء الذي شبه جريراً بالأعشى والأخطل بالنابغة والفرزدق بزهير.

أما الطبقة الثانية عند ابن سلام فيهم: كعب بن زهير-والحطيئة.. أوس بن حجر -بشر بن أبي خازم.

والثالثة: النابغة الجعدي – وأبو ذؤيب والشماخ ولبيد.

والرابعة: طرفة، وعبيد بن الابرص وعلقمه الفحل، وعدى بن زيد.

والخامسة: خداش بن زهير الاسود بن يعفر والمخبل وتميم بن أبي مقبل.

والسادسة: عمرو بن كلثوم التغلبي - والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي وسويد بن ابي كاهل اليشكري.

والسابعة: سلامة بن جندل الحصين بن الحمام المري المتلمس المسيب بن علس.

والثامنة: عمرو بن قميئه - النمر بن تولب اوس بن علفاء عوف بن عطية.

والتاسعة: ضابىء بن الحارث البرجمي سويد بن كراع والحويدرة الذبياني - وسحيم.

والعاشرة: أمية بن حرثان بن الأسكر - وحريث بن محفض المازني والكميت وعمرو بن شاش.

ويضيف إلى ذلك ابن سلام:

١- طبقة شعراء المراثي: متمم بن نويرة - الخنساء - أعشى باهلة - كعب بن الغنوي.

٢- شعراء القرى العربية (مكة-المدينة-الطائف-اليمامة-البحرين):

(أ) فشعراء المدينة: حسان - كعب بن مالك - عبد الله بن رواحة - قيس بن الخطيم - أبو قيس بن أبي الأسلت.

(ب) وشعراء مكة: عبد الله بن الزيعرى - أبو طالب بن عبد المطلب - أبو سفيان بن الحارث - مسافر بن أبي عمرو بن أمية - ضرار بن الخطاب - أبو عزة الجمحي - عبد الله بن حذافة السهمي - الممزق - هبيره بن أبي وهيب.

(جـ) شعراء الطائف: أبو الصلب بن أبي ربيعة - أمية بن أبي الصلت - غيلان بن سلمة - كنانة بن عبد ياليل - أبو محجن الثقفي - غيلان.

(د) شعراء البحرين: المثقب العبدى المفضل بن معشر بن أسحم

(هـ) شعراء اليهود فى المدينة وضواحيها: السموأل – الربيع بن أبى الحقيق – كعب بن الأشرف – شريح بن عمران – شعبة بن الغريض – أبو قيس بن رفاعة – أبو الذيال – درهم بن زيد.

طبقات الإسلاميين:

أما الشعراء الإسلاميون فكذلك يجعلهم ابن سلام طبقات:

الأولى: جرير – الفرزدق – الأخطل – الراعى، وقد ثارت معارك نقدية كبيرة حول أيهم أشعر.

والثانية: البعيث – القطامى – كثير – ذو الرمة (١١٧ هـ).

والثالثة: كعب بن جعيل – عمرو بن أحمر الباهلى – سحيم بن وثيل الرايحى – أوس بن مفراة.

والرابعة: نهشل بن حرى – حميد بن ثور – عمرو بن لجأ – الأشهب بن رميلة.

والخامسة: أبو زبيد الطائى – العجير السلولى – عبد الله بن همام السلولى – نفيع بن لقيط.

والسادسة: ابن الرقيات – الأحوص – جميل – نصيب.

والسابعة: المتوكل الليثى – يزيد بن مفرغ – زياد الأعجم – عدى ابن الرقاع.

والثامنة: عقيل بن علفة المرى – بشامة بن العذير المرى – قراد بن حنش – شبيب بن البرصاء.

والتاسعة: الأغلب – أبو النجم – العجاج – رؤبة.

والعاشرة: مزاحم العقيلى – يزيد بن الطثرية – أبو دؤاد الرؤاسى – القصيف العقيلى.

أهمية الكتاب:

ويمتاز الكتاب بالأصالة والعمق والتحليل الدقيق، والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية في الشعر.

وهو من مصادر ثقافتنا الأدبية في النقد، ولا يكاد يستغني عنه باحث دراس، وهو ضروري في دراسة النقد، وجامع لكثير من الآراء فيه.

ويعد ثروة طائلة في النقد والشعر وتطوره وانتقاله وانتحاله وفي الرواية والرواة والآراء النقدية المبثوثة فيه. ويدل الكتاب على ثقافة ابن سلام الأدبية الواسعة وعلى ذوقه العالي ومنهجه في النقد.

على أن كل طبقة عند ابن سلام تتألف من أربعة شعراء - ولكن الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية الكلام فيها ناقص ومبتور بضياع بعض أصول الكتاب، إذ لم يذكر فيها إلا شاعران اثنان فحسب - ومن الملاحظ أنه لم يذكر أوس بن حجر، ولا المهلهل مع الشعراء.

والكتاب مهم لكل من يريد دراسة الشعر والنقد وتطورهما واتجاهاتهما ومناحي الرواة.

ومن البديهي أن النقد عند ابن سلام ذاتي لا موضوعي، إذ هو يقوم على الذوق الخاص ويعتمد على التجربة الشخصية، ويبتعد عن المنهج الموضوعي العلمي. فأساس النقد عند ابن سلام هو الذوق الأدبي، وهو ملكة مردها إلى أصالة الطبع، وصقل المران، يقول ابن سلام في مفتتح كتابه:

للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم.

ويعرض ابن سلام في المقدمة منهجه في كتابه فيقول:

فصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء (أي النقاد).

ثم يقول: ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات، كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام.

ولقد ثارت قضية أول مؤلف فى النقد، والكثير يجعلون ابن سلام أول من كتب فى النقد وأنا أرجع ذلك إلى الأصمعى وكتابه "فحولة الشعراء" الذى ألف قبل "طبقات الشعراء" لابن سلام بوقت غير قصير.

وابن قتيبة فى كتابه "الشعر والشعراء" محتذ لابن سلام، وتابع له، ومتأثر به غاية التأثر، وقد عنى بالمحدثين ودافع عنهم.

بيد أن ابن سلام لم يعرض للمحدثين، بل وقف عند الإسلاميين ولم يجاوزهم إلى المحدثين[1] ومعنى الطبقة عند ابن سلام أن شعراءها نظراء. وتجمع بينهم صفة مشتركة، وقدر واحد من الموهبة وسلامة الفطرة، وليس معنى الطبقة المعاصرة التاريخية، ولا شيئا من ذلك، ولكنها تعنى كما قلت تشابه الشاعرية وتشاكل الموهبة الفنية.

وابن سلام هو على أية حال أول من رتب الشعراء طبقات، وذلك فى حد ذاته يعد عملا نقديا كبيرا وجديدا فى الوقت نفسه، ويرفع من منزلة ابن سلام بين النقاد إلى مكانة عالية.

وإذا كان ابن المعتز قد ألف بعده كتابه "طبقات الشعراء المحدثين" أو "طبقات الشعراء فى مدح الخلفاء والوزراء" فإنه لم يعن فيه بترتيب الشعراء المحدثين وتقسيمهم إلى طبقات، قدر عنايته بحياتهم والترجمة لهم وذكر نماذج من شعرهم وبيان بعض الآراء النقدية فى هذا الشعر. ومن ثم لم يأخذ كتاب ابن المعتز المكانة العلمية التى أخذها كتاب ابن سلام. وكان كتاب ابن المعتز أقرب إلى كتب التراجم من حيث كان كتاب ابن سلام من صميم كتب النقد، وذلك واضح الصبغة فى الكتاب.

لقد وضع الأصمعي مقياسا لفحولة الشاعر وطبقه، ووضع ابن سلام أساسا لطبقات الشعراء وأجاد تطبيقه، وابن المعتز وضع أساسا لنظرية البديع فى النقد

---

[1] الطبقات ومفهومها النقدى - رسالة ماجستير قدمها جهاد مجالى إلى الجامعة الأردنية عام ١٩٨٤.

العربي. وقدامه وضع أساسا للمنهج الموضوعي فى النقد العربي وطبق ذلك فى كتابه، وابن طباطبا وضع أساسا للنقد التأثيرى وطبق ذلك المنهج على الشعر والشعراء، وجاء النقاد العرب الكبار، فوضعوا نظرية عمود الشعر العربي وطبقوا هذه النظرية على شعراء كثيرين، وفى مقدمتهم أبو تمام (٢٣١هـ) والبحتري (٢٨٤هـ)، وكان من أشهر من طبقوا هذه النظرية بعد ابن طباطبا أبو الحسن الآمدى (٣٧٢هـ) صاحب كتاب "الموازنة" بين "الطائيين". ولا ننسى جهود الجاحظ من قبل فى وضع أساس نظرية النظم وتطبيقها فى النقد العربي، حتى جاء عبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) فتوسع فى دراسة هذه النظرية وفى تطبيقاتها، وصارت نظرية نقدية وبلاغية كبيرة، هى نظرية النظم التى كانت الركيزة الأولى فى وضع قواعد البلاغة العربية، كما أن قدامه قد وضع نظرية النقد الموضوعي.

هؤلاء علماؤنا،وهذا تراثنا العظيم، فى النقد الذى تحول منذ القرن الثاني الهجري إلى نظريات ومذاهب أثرى بها الفكر العربي فى قديمنا الخالد من حيث وقف هذا الفكر بعدهم يتلمس الطريق إلى التجديد، حتى أتاح له الاتصال بالغرب أن يأخذ عنه ويتتلمذ عليه فى مذاهب النقد، وشتان بين شخصيتنا القديمة الواضحة المستقلة فى النقد وبين تبعيتنا الحاضرة ومذاهبه النقدية والأدبية.

الجاحظ وكتابه البيان والتبيين
(١٥٠ – ٢٥٥هـ / ٧٦٧ – ٨٧٨م)

– ١ –

يصف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كتابه "البيان والتبيين" في صدر أحد أبوابه بأنه "قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي"[١].

ولم يقل لنا أبو عثمان إلا القليل الأقل في الحديث عن كتابه.

لم يقل لنا مثلا: إنه أول كتاب ألف في الأدب العربي، ولا أنه أول كتاب وضع أصول دراسات آداب العرب، ولا أنه كتاب وضع أصول البلاغة العربية[٢]، ولا أنه أول كتاب تحدث عن مختلف فنون الأدب كما عرفها عصره، من أنساب وأخبار وتراجم ونقد وزهد وحكمة ووصايا، ومختارات من الشعر والنثر، وآداب الصوفيين، ومن جدل، وتاريخ، ومدارس ومذاهب ومحاورات، ومفاخرات ومناظرات، وغير ذلك.

وعلى نمط كتاب "البيان والتبيين" ألفت جميع كتب الآداب العامة الجامعة بعد عصر الجاحظ إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادي.

لم يقل لنا أبو عثمان شيئا من ذلك وإن كان قد تحدث عن لغة الكتاب، وعن أنه كتاب يصلح لقراءة الخاصة والعامة، وأنه يتحدث فيه عن أدب الشعب في عصره، وعن أدب الملوك، وأنه كتاب يصلح للسمر في مجالس الطبقات العليا، وأن النصوص الأدبية التي جمعها فيه قد لا توجد في كتاب آخر هي أو بعضها على الأقل.

---

(١) ٣ : ٧٥ البيان والتبيين، تحقيق السندوبي.

(٢) راجع مقدمة كتاب "نقد النثر" بقلم د. طه حسين.

لقد ألف الجاحظ الكتاب بعد كتابه "الحيوان" وأهداه إلى أحمد بن أبى داؤد[٣] فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار، ويشير فيه إلى كتاب "الحيوان" فى مواضع متفرقة[٤]، فيقول مثلاً: "كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب[٥]، والجزء من الكتاب يسمى مصحفاً.

ولقد ألقى الكتاب ثناء كبيراً من أعلام عصر الجاحظ وعلمائه وأدبائه، وحمل بعد ظهوره إلى الأندلس فلقى إقبالاً كبيراً، ويعده المسعودى من أشرف كتب الجاحظ، وقال عنه: إنه قد جمع فيه بين المنثور والمنظوم وعزز الأشعار، ومستحسن الأخبار[٦]، ونوه به أبو هلال العسكري، وعده من أشهر كتب البلاغة[٧]، ثم استطرد إلى أنه لم يبن عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة[٨]، وقال ابن رشيق فيه: إنه لا يجارى جودة وفضلاً[٩]. وجعله ابن خلدون أحد أركان الأدب الأربعة.

والكتاب كان مصدراً لثقافة الأدباء والشعراء والكتاب العربي على طول العصور، ومن مادته الواسعة نهل المثقفون والعلماء والبلغاء والمؤلفون قديماً وحديثاً، ومن أوائلهم ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والمبرد (٢٨٥هـ)، وابن عبد ربه الأندلسي صاحب "العقد الفريد" (- ٣٢٩هـ)، وأبو هلال العسكري (- ٣٩٥هـ) صاحب "الصناعتين" وعبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ - ٤٧١) فى كتابه "الدلائل والأسرار" وابن رشيق (٣٩٠ - ٤٦٣هـ)، وأسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤هـ) فى كتابه "لباب الآداب" وابن الأثير (- ٦٣٧هـ) فى كتابه "المثل السائر" وسواهم.

---

[٣] من أئمة المعتزلة، ولى القضاء للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان ذا نفوذ واسع توفى عام ٢٤٠هـ.

[٤] ١٣٨/١، ١٧٣/٣، ٣٠٢ البيان والتبيين، ط السندوبى.

[٥] ٣٠٢/٣ المرجع نفسه، طبع الخانجى.

[٦] ١٩٦/٤ مروج الذهب للمسعودى.

[٧] ٦ . ٧ الصناعتين، طبعة صبيح.

[٨] ١ : ١٧١ العمدة لابن رشيق.

[٩] ٥٣٣ المقدمة لابن خلدون.

إن كتاب "البيان والتبيين" بحق هو أول كتاب في الأدب جامع لفنون كثيرة منه، ولأنواع عدة من اللغة والشعر والخطابة، وفيه يذكر أبو عثمان الكثير من الخطباء والبلغاء والمنشئين وآثارهم، وهو من أجل الوثائق الأدبية في عصري الجاهلية والإسلام[10]، ولا يبلغ جودة ومنزلة[11]، فقد جمع بين دفتيه الكثير من بلاغات العرب، ومن أصول النقد، والبلاغة.

والكتاب في مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتهلة، والفكر الذكي. وقد خدم به الجاحظ الأدب والبيان خدمة لا تقدر.

وفضلا عن أنه أصل من أصول الأدب فإن قيمته في البيان العربي والبلاغة العربية كبيرة لما أودع فيه من بحوث كثيرة وآراء مختلفة في البلاغة وعناصرها وألوانها ومذاهبها، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته، أم من ابتكاره وتجديده، وقد نقل عنه العديدون من علماء البلاغة آراء بلاغية كثيرة، ومن بينهم ابن قتيبة (٢٧٦هـ) وابن المعتز (-٢٩٦هـ)، وابن المدبر (- ٢٧٩هـ)، وقدامة(-٣٣٧هـ) والآمدي (٣٧١هـ) صاحب كتاب "الموازنة" وأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) صاحب كتاب "الصناعتين"، والقاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ) صاحب كتاب "الوساطة"، وابن سنان الخفاجي (-٤٦٦هـ). مؤلف كتاب "سر الفصاحة" وعبد القاهر (٤١٠ – ٤٧١هـ)، مؤلف "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

و"البيان والتبيين" كذلك له أثره في "النقد الأدبي" فهو سجل حافل بالآراء المختلفة في النقد، مما لا يزال حتى اليوم موضع الاهتمام من الباحثين وحين نقد الجاحظ مذهب أصحاب "الصنعة" من الشعراء، وفضل مذهب المطبوعين، كان يضع بذلك أساسا قويا لمنظور الدراسات النقدية.

---

[10] ٨٠ العصر العباسي للاسكندري.

[11] ٣٥ الجاحظ لخليل مردم.

في الجزء الأول من الكتاب شرح الجاحظ الكثير من أصول البيان، مبينا عيوبه وواضعا للحدود العامة للبلاغة ومذاهبها.

وفي الجزء الثاني من الكتاب يتحدث الجاحظ عن الخطابة والشعر وأعلامهما حتى عصره.

وفي الجزء الثالث يتحدث عن الشعوبية ويرد على أعلامها مطاعنهم التي طعنوا بها على العرب، وكان الشعوبيون ينكرون على العرب الخطابة فكتب الجاحظ ردودا بليغة يثبت فيها أن العرب أخطب من العجم، وأن اتخاذهم العصا في موقف الخطابة محمدة لا مذمة[١٢].

ومذهب الجاحظ الأدبي في إيثار الاستطراد واضح في كتابه "البيان والتبيين"، ومن ثم نقده أحمد أمين بأن الفوضى غالبة عليه[١٣]، وحمله مسئولية هذه الفوضى في التأليف التي سادت كتب الأدب العربي القديمة، كالكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وزهر الآداب للحصري (-٤٨٤هـ)، وسواها.

وهذا النقد خطأ من أساسه، فإنما ألف الجاحظ كتابه ليكون موسوعة في الأدب والبيان لا ليكون منهجيا محدودا، وليس الاستطراد مذموما بحال من الأحوال.

ويعتبر بعض الكتاب شخصية الجاحظ في كتابه معدومة[١٤]، وهذا خطأ أيضا، فشخصية الجاحظ فيما جمعه وفيما ابتكره في الكتاب واضحة كل الوضوح، سواء في حواره وجدله، أم في نقاشه للآراء أم في خوضه معارك فكرية وأدبية، ضمنها كتابه وأبدى رأيه فيها، أم في غير ذلك.

---

(١٢) ١/٢٢٧ العمدة لابن رشيق.

(١٣) ٣٢ من أمهات الكتب العربية للعوضي الوكيل.

(١٤) ٧ مقدمة كتاب "نقد النثر" بقلم طه حسين.

والسمة الغالبة على الكتاب هي أنه مظهر لامتزاج الثقافات في عصر الجاحظ، هذا الامتزاج الذى نراه فيه، فللثقافة العربية الحظ الأكبر في الكتاب، وحظ الثقافات الأجنبية فيه غير قليل من يونانية وهندية وفارسية[١٥] وغيرها.

وقد ثار الجدل حول ما إذا كان الجاحظ قد تأثر بالبلاغة اليونانية وهو يضع أصول البلاغة العربية فى كتابه "البيان والتبيين"[١٦]، فباحث يرى تأثره بخطابة أرسطو، مما يشير إليه استعمال الجاحظ للقياس المضمر[١٧] (المذهب الكلامي) وأقول: إن كتاب الخطابة لأرسطو ليس له أي صدى فى كتاب الجاحظ ولا فى فكره البياني[١٨] لأن الجاحظ لم ير هذا الكتاب إذ لم يكن قد ترجم الى العربية فى حياة الجاحظ. والدكتور طه حسين يؤيد[١٩] فكرة تأثر الجاحظ بفكر أرسطو البلاغي، ويرى أن أرسطو مشرع للعقل اليوناني وللعقل العربي أيضا فى البلاغة.

والجاحظ فى كتابه يذكر تعاريف البلاغة عند الأمم ومنها اليونان والرومان[٢٠]، ويرى أن رسائل اليونان وخطبهم وحكمهم وكتبهم في المنطق لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[٢١]، وأنه ليس لفلاسفة اليونان في الخطابة شأن[٢٢]، مع أن كتب المنطق اليوناني يجعلها المفكرون جميعا معيارا للتفكير[٢٣].

---

(١٥) ٤١٥/١ ضحى الإسلام لأحمد أمين.

(١٦) مجلة الرسالة عدد ١٩٦ – عبد الوهاب حمودة فى محاضرة له فى أسبوع الجاحظ.

(١٧) مجلة الرسالة، العدد نفسه، ص ٦٢١.

(١٨) المرجع السابق ص ٦٢٢.

(١٩) ص٣ مقدمة كتاب نقد النثر بقلم د. طه حسين.

(٢٠) مقدمة نقد النثر، وراجع كتاب د. إبراهيم سلامة: خطابة أرسطو، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان.

(٢١) ٦٩/١ البيان، ٩ نقد النثر.

(٢٢) ٧٥/١ البيان والتبيين.

(٢٣) ٧/٣ البيان والتبيين.

ويذكر الجاحظ فى كتابه ما سماه "صناعة الكلام" ويعنى بهذا المصطلح حينا "علم الكلام"[٢٤]، وحينا آخر "البيان"[٢٥]، وكذلك يذكر "صناعة الخطابة"[٢٦] و "أصحاب الخطابة والبلاغة" أيضا.

على أن الجاحظ فيما ذكره من بعض أصول البلاغة يشترك مع أرسطو فى بعض الأمور كدعوته إلى ترك الوحشي والسوقي وإلى وضوح العبارة، وإلى الإيجاز فى موضعه والإطناب فى موضعه، وإلى إخراج اللحن من حد البلاغة، وليس ذلك تأثر لأن مثل ذلك أفكار عامة تشترك فيها بلاغات جميع الأمم، وإذا كانت الاستعارة موجودة عند أرسطو والجاحظ، فلأنها فكر بلاغى عام عند جميع الأمم.

ويصف الجاحظ أرسطو بأنه كان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام (أى نقده)[٢٧].

وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية أكثر وضوحا فى الكتاب فهو ينقل كثيرا من النصوص الفارسية وبخاصة ما تدور حول البلاغة والخطابة والبيان، لأن مجتمع البصرة كانت تعيش فيه عناصر فارسية كثيرة، وكانت الترجمات العربية للكتب الفارسية عديدة أيضا؛ بل إن الجاحظ كان يعرف الفارسية[٢٨]، ويتكلم بها ويعرف نحوها وأدبها ويترجم منها[٢٩].

وعن طريق الثقافة الفارسية اتصل الجاحظ بالثقافة الهندية، ونقل عنها الكثير من النصوص.

---

[٢٤] ٦٩/١ المرجع السابق.

[٢٥] ١٠٨/١ المرجع نفسه.

[٢٦] ١٨٣/١ المرجع نفسه.

[٢٧] ٢٧/٣ البيان والتبيين.

[٢٨] ٣١٧/٢ أمراء البيان لمحمد كردعلى.

[٢٩] ٢٠٠ النقد المنهجى عند الجاحظ لدواد سلوم.

- ٣ -

وأخيرا يتساءل: متى ألف الجاحظ كتابه "البيان والتبيين".

إن ذلك السؤال والإجابة عنه لم يتعرض لهما الباحثون على الإطلاق.

إن الجاحظ يذكر في كتابه "الحيوان" أنه ألفه وهو في أشد حالات العلة الشديدة التي كان يقاسي منها[٣٠].

ونحن نعلم أن الجاحظ أصيب بالفالج (الشلل) في خلافة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) وشفي منه، وكان الجاحظ حين أصيب به أول مرة في الثمانين[٣١] من عمره، فإذا كان ميلاده عام ١٥٠هـ فإن معنى ذلك أنه أصيب بهذا المرض عام ٢٣٠هـ، فتاريخ تأليف كتاب "الحيوان" هو هذا العام المذكور.

وكتاب "البيان" ألفه الجاحظ بعد كتاب "الحيوان" كما يذهب إليه ثقات الباحثين، ففيه يشير إلى كتاب "الحيوان" كما ذكرنا في صدر هذا المقال، وإهداء الجاحظ لكتابه "البيان" إلى أحمد ابن أبي داؤد المتوفى عام ٢٤٠هـ يدل على أن كتاب "البيان" ألف بين عامي ٢٣٠ و٢٤٠هـ، ويكون من المرجح أن الجاحظ ألفه نحو عام ٢٣٦هـ بعد أن شفي من العلة التي أصابته أول مرة.

- ٤ -

لقد كان الجاحظ عميد الأدب والأدباء في عصره وبعد عصره، وعد من مفاخر العقل العربي والأمة العربية، وهو عربي على ما يرجحه أغلب الباحثين أو ثقاتهم، وكانت كتبه في حياته، وبعد حياته في كل مكان من العالم الإسلامي، بل كانت الغذاء الثقافي والأدبي والفكري لكل المثقفين المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهي تدور حول شتى أنواع الثقافة والأدب، من البيان والنقد والحوار والجدل والسخرية والقصة والمذاهب ... إلخ.

---

[٣٠] ٢٠/٤ الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون.

[٣١] ١٠٣/١٦ معجم الأدباء لياقوت نشر فريد رفاعي.

وقد نقل الجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى أوسع معنى، فجعله شاملا لكل شيء، جعله مرادفا للثقافة العامة، بل جعله الحياة كلها، فالحياة عنده هي مادته، وهي موضوعه، فالأدب عنده هو الحياة نفسها، أو هو التعبير عنها، تصويرا لها مرة، أو نقدا وتوجيها لها مرة أخرى.

وتزداد أهمية كتاب "البيان .." بأن نعلم أنه قد أرخ فيه للحياة الأدبية العربية من قبل ميلاده وحتى وفاته عام ٢٥٥هـ.

فى الكتاب دعا الجاحظ إلى الأسلوب وبلاغته، وأساسه عنده هو الكلمة وحسن اختيارها، وملاك الأمر عنده فى البلاغة هو التبيين والإفهام.

الأسلوب عند الجاحظ هو مظهر البلاغة وصورتها، أما المعانى فتلى الأسلوب فى المنزلة وفى التقدير، فالأدب صياغة وضرب من التصوير، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والحضرى والبدوى، إنما الشأن فى جمال الصياغة وجودة السبك.

ويذكر الجاحظ أن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وكان يعجب بمذهب المحدثين وبلاغتهم، ويفضل أشعارهم، وينكر العصبية عليهم، كما كان يدعو إلى تقدير الجيد ممن كان،وفى أى عصر كان.

وبعد فإن الجاحظ بعد أن قال ما قال فى كتابه الخالد "البيان والتبيين" يختم الكتاب بكلمة بلغية يقول فيها مخاطبا أحمد بن داؤد الذى كان يوده لاعتزاليته التى يشاركه فيها:

"وبعد، فهذا – أبقاك الله – آخر ما ألفناه من كتاب "البيان والتبيين"، ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته، وأردناه من تأليفه. فإن وقع على الحال التى أردها، وبالمنزلة التى أملنا، فلك بتوفيق الله، وحسن تأييده وإن وقع بخلافها فما قصرنا فى الاجتهاد، ولكن حرصنا التوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نقد الشعر

لقدامة بن جعفر

منزلة قدامة فى النقد:

قدامة بن جعفر (٢٧٦ – ٣٣٧هـ / ٨٨٩ – ٩٤٨م) من أشهر النقاد العرب، الذين أثروا حركة النقد الأدبى فى اللغة العربية، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية، ووجهوا النقد والنقاد وجهة جديدة استمر صداها على طول العصور. وكتابه "نقد الشعر" صار أصلا لجميع الدراسات النقدية العربية، لأنه استحدث مذهبا جديدا فيها صار قدامة صاحبه، وله فضل الكشف عنه.

وكان لآراء قدامة فى نقد الشعر صدى كبير عند النقاد القدماء، بل لقد أحدثت ضجة كبيرة فى وسطهم، فالآمدى (٣٧١هـ) ألف كتابا فى تبيين غلط قدامة فى كتابه "نقد الشعر"[1]. وألف عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩هـ) كتابا فى شرح نقد الشعر لقدامة[2]، وكتابا بعنوان "كشف الظلامة عن قدامة"[3].

---

[1] راجع ١٢٥ الموازنة للأمدى "طبعة صبيح"، ومعجم الأدباء فى ترجمة الأمدى.

[2] ٧/٢ فوات الوفيات لابن شاكر. ولعبد اللطيف البغدادى كتاب قوانين البلاغة، واختصر كتاب الصناعتين للعسكرى "٧/٢ و ٨ فوات" – ويروى صاحب "كشف الظنون" ان للبغدادى كتابا اسمه "تكملة "صلة فى شرح نقد الشعر لقدامة" "٢٤٦/١ كشف الظنون"، وكتابا آخر اسمه "كشف الظلامة عن قدامة" "٤٠٠/٢ كشف الظنون". ولعل الكتاب الاول هو الاسم "كامل لشرح البغدادى لنقد الشعر. وينسب لابن رشيق القيروانى كتاب بعنوان "تزييف نقد قدامة" "٨٨ تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى – ٦٥٤ هـ". ويرجح أنه ليس لابن رشيق صاحب "العمدة".

[3] ٤٠٠/٢ كشف الظنون لحاجى خليفة.

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء كما يقول مؤرخوه[٤]. ونسب إليه كتاب "نقد النثر" الذى حققه الدكتوران طه حسين وعبد الحميد العبادى. وقد وجدت نسخة خطية كاملة من الكتاب نفسه فى مكتبة تشستر بيتى برقم ٧٦٧ تحت عنوان "كتاب البرهان فى وجوه البيان"، لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر لقدامة بعد ما ثار جدل كبير حول صحة نسبة كتاب "نقد النثر" إلى قدامة، وكان الذى ظهر من الكتاب، اعتمادا على نسخة الأسكوريال[٥] باسم "نقد النثر" وبتحقيق الدكتورين طه حسين والعبادى هو نحو ثلث الكتاب. وقد نشر الكتاب كاملا أخيرا الدكتور أحمد مطلوب فى بغداد.

ولقدامة كتب كثيرة من مثل: سر البلاغة فى الكتابة، وصنعة الكتابة، وكتاب الألفاظ، وكتاب الخراج، وغيرها، وله كتاب آخر أشار إليه ياقوت فى "معجم الأدباء" وهو "الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام"[٦].

هل هو أول من ألف فى النقد؟:

وقدامة فى مقدمة كتابه "نقد الشعر"[٧] يرى أن كتابه أول كتاب يؤلف فى النقد، فيقول فى مقدمته: "ولما وجدت الأمر على ذلك، وتبينت أن الكلام فى هذا

---

[٤] ٢٠٣/٦ - ٢٠٥ معجم الأدباء لياقوت، ١٨٨ الفهرست لابن النديم، ٣٤/٢ كشف الظنون، تاريخ بغداد فى ترجمة قدامة - قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة، الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية - فى النقد الأدبى للدكتور شوقى ضيف.

[٥] تحت رقم ٢٤٣.

[٦] ٢٠٤/٦ معجم الأدباء لياقوت "مرجليوث".

[٧] طبع طبعات عديدة: فقد نشره س.أ. بونيباكر بمطبعة بريل فى ليدن عام ١٩٥٦، ومن قبل طبع فى الجوائب عام ١٣٠٢ هـ، وطبع فى القاهرة طبعة أخرى عام ١٩٣٤ بشرح لمحمد عيسى منون وبشرح آخر لكمال مصطفى وظهر عن مكتبة الخانجى.

الأمر – أي النقد – أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع"[٨].

وقدامة يغفل جهود العلماء السابقين في تأصيل قواعد للنقد من مثل: الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء"، وابن سلام في كتابه "طبقات الشعراء"[٩]، والجاحظ فيما كتبه عن النقد في كتبه "البيان والتبيين"، "والحيوان" وغيرهما، وابن قتيبة في كتابه"الشعر والشعراء"، والمبرد في كتابه "قواعد الشعر"، وثعلب في كتابه له بعنوان "قواعد الشعر" أيضا، وقد حققته وظهر مطبوعا عام ١٩٤٨، وابن المعتز في كتابه "البديع" وسوى هؤلاء الأعلام الخالدين في تراثنا العربي والنقدي.

مذهبه في النقد:

وقد فصل قدامة في كتاب "نقد الشعر" مذهبه في النقد: فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة من اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وإلى عناصر أربعة أخرى مركبة من هذه العناصر. ويذكر أن الشعر قد يكون جيدا أو رديئا أو بين الأمرين، وأنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفها الأعلى[١٠] ويقول: إنه يذكر صفات الشعر التي تبلغ به غاية الجودة، فإن وجد بقصد هذه الحال كان شعرا في غاية الرداءة، وإلا فهو بين بين، أي بين طرفي الجودة والرداءة بحسب مدى قربه من أي الطرفين أو توسطه بينهما.

فعناصر الشعر عنده: اللفظ – المعنى – الوزن – القافية ويتألف من هذه العناصر أربعة عناصر أخرى هي:

١. ائتلاف اللفظ مع المعنى.
٢. ائتلاف اللفظ مع الوزن.

---

(٨) ص ١٢ نقد الشعر طبعة القاهرة ١٩٣٤.

(٩) يرى الكثير من الباحثين أن طبقات الشعراء، أول مؤلف عربي في النقد راجع: النقد المنهجي لمندور، ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه إبراهيم، ١٠٨/٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.

(١٠) ١٣ نقد الشعر لقدامة طبعة ١٩٣٤ بالقاهرة.

٣. ائتلاف المعنى مع الوزن.

٤. ائتلاف المعنى مع القافية.

وصفات اللفظ الجيد عنده هى: سماحة اللفظ – سهولة مخارج الحروف – الخلو من البشاعة – الفصاحة.

وصفات الوزن الجيد هى: سهولة العروض – الترجيع.

وصفات القوافى الجيدة هى: عذوبة حرف القافية – سهولة مخرجها- التصريع فى المطلع.

وصفات المعنى الجيد هى: الوفاء بالغرض المقصود. أما الغلو فى المعنى فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط، ويقو: إنه عنده أجود المذهبين، وإنه هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا، حتى قال بعضهم: "أعذب الشعر أكذبه" وإنه مذهب فلاسفة اليونان فى الشعر على مذهب لغتهم، ويقصد بهم أرسطو صاحب أول مدرسة نقدية فى التراث النقدى الأوروبى. ويؤكد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول فى باب المعدوم فالمراد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت. ولما كانت المعانى عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر فى أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف إلخ.

فنعت المدح الجيد عنده هو الصدق، ويقسم الفضائل الإنسانية إلى التقسيم الفلسفى المشهور، العفة والشجاعة والعدل والعقل، ويقول: إن المدح الجيد يكون بهذه الصفات أو بعضها، وإن كان ذلك يعد قصورا، وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية فى هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة.

والهجاء ضد المدح فى رأيه، وصفاته مضادة لصفات المدح. ويقرر أنه ليس بين المدحة والمرثية فرق إلا فى اللفظ دون المعنى، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح – ولعل عبد الصمد بن المعذل (٢٣٠هـ) هو أول من قال بهذا الرأى حيث روى عنه ابن رشيق فى "العمدة" – (ج ١، ص ١٠٣) – أنه قال: "الشعر كله فى ثلاث لفظات: إذا مدحت قلت: أنت، وإذا هجوت – قلت: لست، وإذا رثيت – قلت: كنت" – ولا نوافقه على ذلك كله.

ثم يذكر قدامة نعوت الوصف الجيد، ويتحدث من أجل ذلك عن التشبيه، والغزل. ويقول: إن هذه هي نعوت أغراض الشعر التى نحتها الشعراء من المعانى، وهذه الأغراض بالنسبة للمعانى جزء من كل. فأما ما يعم جميع المعانى عن نعوت الشعر فهى: صحة التقسيم – صحة المقابلة – صحة التفسير – التتميم – المبالغة – التكافؤ – الالتفات – الاستغراب أو الطرافة.

ويستقصى قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى، من: مساواة – إرداف "كتابة" – إشارة – تمثيل – مطابق ومجانس.

ويذكر نعوت ائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية من التوشيح والإيغال.

ويذكر عيوب الشعر فى اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، وعيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى ومع الوزن وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن، ومع القافية، وهى كلها بعكس ما ذكره فى صفات الجودة.

أهم خصائص مذهبه النقدى:

يكون هذا المنهج العقلى المحض فى النقد مذهب قدامة النقدى، الذى صار حديث النقاد فى عصره وبعد عصره إلى اليوم.

فقدامة يحكم عقله المنطقى فى النقد إلى أبعد حد، فالمديح الجيد عنده بذكر الفضائل الإنسانية، فإذا كان المدح بشرف الآباء كان معيباً، لأنه ليس مدحاً بالفضائل. والهجاء بنفى الحسب والنسب معيب، ويقرر أنه ضد المدح. والمرثية فى رأيه هى المدح مع جعل الأسلوب ماضياً. وهذا خطأ فى إغفال العاطفة والتجربة الشعرية، وإغفال جوهر الموضوع الشعرى نفسه. وحين يرى قدامة أن المبالغة أجود، يعود فيقيدها بمنهج العرب ومألوفهم[11]، ثم يقيدها بألا تخرج إلى حد الممتنع الذى

---

[11] ص ٣٧ نقد الشعر، السطر ١٠-١٢.

لا يكون[12]. وقدامة مع تفضيله للمبالغة يرى أن الشاعر كثير عزة في قوله لعبد الملك ابن مروان:

على أبي العاصي دلاص[13] حصينة

أبلغ وأجود من الأعشى الشاعر الجاهلي في قوله:

كنت المقدم غير لابس جنة

أي كنت المقدم في الحرب دون أن تكون لابسا دروعا وحديدا تتقي بها الطعان والضرب. وقدامة ينسى أن العرب قد تصف الرجل بالشجاعة، وقد تصفه بالحذر والاحتراس من المخاطر بلبس الدروع، وذلك أسلوبان من أساليب العرب في المدح[14].

ويجعل قدامة طرافة المعنى واختراعه ليست نعتا للشعر بل للشاعر[15]. وذلك غريب في الفهم، وقد يستجيد أبياتا ويعيب أخرى دون سبب معروف، ومخالفا لأذواق النقاد. بل يجعل بيت ابن هرمة الشاعر المشهور في المدح بالكرم:

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه   يكلمه من حبه وهو أعجم

تناقضا معيبا إذ كيف يكلم الكلب الضيف مع قوله: "وهو أعجم".

ويعيب كذلك قول الشاعر في المدح:

كالغيث في كل ساعة يكف[16]

لأنه - كما يقول - ليس في المعهود أن يهطل المطر كل ساعة. ويعيب بيت زهير بدعوى التناقض:

قف بالديار التي لم يعفها القدم   بلى وغيرها الأرواح والديم

الأرواح: الرياح، والديم: السحب، جمع ديمة وهو السحابة الممطرة.

---

[12] ص ١٢٥ المرجع نفسه، السطر ١٢-١٥.

[13] أي دروع سابغة.

[14] راجع ٣٢٨ - ٣٣١ الوساطة للقاضي الجرجاني - طبعة صبيح.

[15] ٨٨ و ٨٩ نقد الشعر.

[16] أي يهطل ويمطر دائما.

مصادر قدامة النقدية:

لقد تأثر قدامة فى كتابه بالثقافات العقلية التى كانت سائدة فى البصرة فى عصره، والتى تتلمذ عليها، وأخذ منها. ففى القرن الثالث، الذى عاش قدامة فى آخره،وفى البصرة بالذات، التقت الثقافات العربية الإسلامية والمترجمة الدخيلة التقاء فكرياً على نحو رائع، ونشأت طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على هذا الفكر الإنسانى. وكان فى مقدمتهم المعتزلة الذين رجعوا إلى المنطق اليونانى. وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، وترجموا آراء الأمم الأخرى فى البيان ومناهجه، وترجموا - فيما ترجموه - كتابى الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية، فالخطابة ترجمة إسحاق بن حنين (٢٩٨هـ)، وكتاب الشعر اختصره الكندى (٣٥٣هـ).

وأخذت هذه الطبقة تؤلف فى صناعة الشعر، وللكندى أول الفلاسفة العرب رسالة فى صناعة الشعر[١٧]، ولأبى زيد البلخى كذلك كتاب بهذا العنوان أيضاً[١٨]، وكذلك لأبى هفان المهزمى رواية شعر أبى نواس[١٩].

وكان متكلمو المعتزلة بتضلعهم من الفلسفة اليونانية أصحاب آراء كثيرة فى النقد والبيان.

ومن البديهى أن يقرأ قدامة كل هذه الثقافات وأن يستفيد منها ويتأثر بها، وقد استفاد قدامة من كتابى أرسطو: الخطابة، والشعر، وإن كان الدكتور طه حسين يرى أنه كان يجهل كتاب الشعر[٢٠]، على أن تشريع الفلسفة للأدب يظهر فى رأى الدكتور طه لأول مرة فى كتاب "نقد الشعر".

---

[١٧] ٣٥٩ الفهرست لابن النديم.

[١٨] ١٩٨ المرجع نفسه.

[١٩] ٢٠٧ المرجع نفسه.

[٢٠] ص ٧ مقدمة نقد النثر.

ونظرية الفضائل وقيامها على أربع صفات، وحديثه عن المقاربة فى الاستعادة، وعن الاستعارة اللفظية، هى صورة مأخوذة من فلسفة أفلاطون وآراء أرسطو.

وقدامة بذلك يباين فى منهجه منهج النقاد العرب الأصلاء، من مثل الأصمعى وابن الأعرابى وابن سلام والحافظ وابن المعتز وابن قتيبة وغيرهم.

وإن كان نهج قدامة العقلى يعد أكبر وأجرأ خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول النقد والبيان.

وحسبنا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولوا منهج قدامة الشعر عناية جلى، وتأثروا به تأثرا عميقا، وهم:

١. أبو هلال العسكرى (٣٩٥هـ) فى كتابه "الصناعتين".
٢. ابن سنان الخفاجى (٤٦٦هـ) فى كتابه "سر الفصاحة".
٣. ابن رشيق القيروانى (٤٦٠هـ) فى كتابه "العمدة".

كما تأثر علماء البلاغة تأثرا شديدا بقدامة وآرائه فى "نقد الشعر".

ومن البديهى أن يستفيد قدامة من ابن المعتز (٢٩٦هـ) وكتابه "البديع" فائدة كبيرة، فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هى مما ذكره ابن المعتز فى البديع على أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية.

وبلاغة التجنيس عند قدامة، ونظرية قرب الشبه فى الاستعارة، والاستعارة من الضد، وابتناء الشعر على التخييل أى المحاكاة، هى كلها مما قرره قدامة وأفاد منه عبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) وغيره من النقاد والبلاغيين العرب من بعده.

النقد ذاتى أم موضوعى؟:

هذا هو منهج قدامة فى النقد، ولكن إلى أى مدى يمكن أن نقول: إن هذا المنهج تأثرى أو موضوعى، وإلى أى الجانبين كان ينحاز قدامة؟.

لقد كان منهج قدامة النقدى يتفق وموضوعية النقد، فهو يعتمد على مناهج يحكم النقاد على أساسها. والنقد الموضوعى مر بأطوار كثيرة خلال عصور التاريخ الأدبى العالمى:

- فمن نقد أرسطو الذى بناه على أصول فصلها فى كتابيه "الشعر، والخطابة".
- إلى نقد قدامة المبنى على قواعد ونظرية محددة.
- إلى نقد المدارس الحديثة التى ربطت النقد بعلوم النفس والجمال والاجتماع.

ويرفض الكثير من النقاد موضوعية النقد،حيث ثاروا على قواعد أرسطو، كما ثار النقاد العرب على قواعد قدامة، وثار المحدثون على آراء المدارس الحديثة التى تؤمن بموضوعية النقد، ومن بينهم طه حسين ومندور والزيات.

وقف جمهور من النقاد موقفاً وسطاً فدعوا إلى التخفيف من إخضاع النقد للعلوم الحديثة، ومنهم الدكتور النويهى وغيره.

وفى نقد نظرية إخضاع النقد للعلوم الحديثة يقول مندور: إن معنى هذه النظرية الانصراف عن الأدب وتذوقه وفهمه إلى نظريات عامة لا فائدة منها لأحد، ورأى وجوب قصر المشتغلين بالنقد جهدهم على دراسة النص الأدبى، ويصرح لانسون عميد النقاد فى فرنسا بأن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات.

وقد جهد مندور فى تقرير أن النقد ذاتى تأثرى ويجب أن يظل كذلك تأثرياً يخضع للذوق وحده "١١٦ - ١٢٩ فى الميزان الجديد لمندور".

ويعتد ابن سلام والآمدى والقاضى الجرجانى بالذوق، وكان عبد القاهر الجرجانى شيخ النقاد العرب يرى أن النقد الأدبى يجب أن يكون فناً طليقاً لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا، التى حاربت نظرة الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله وقواعده ومناهجه، ورجعت إلى الشعور والعاطفة، وإلى هذا نادى سانت بيف فى قوله: "ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى"، وقوله: "النقد لا يمكن أن يصبح علماً موضوعياً: وسيبقى دائماً رقيقاً فى يد من يحاولون استخدامه". ويقول جول ليمتر: "إننا نحكم بالجودة على ما نحب، أى أننا نرى حسناً ما نحب". وقد

فطن الجاحظ والبحترى والصاحب ابن عباد إلى أن النقد شىء مستقل عن كل علم آخر، وأن قوامه الذوق[21].

قدامة والناشئ الأكبر:

وبعد، فلقد أحدث قدامة بمنهجه النقدى - الذى صورناه لك - فى كتابه "نقد الشعر"، ثورة فكرية عميقة، ظهر صداها فى تراثنا النقدى والبلاغى والبيانى، وفيما ألف من كتب بعده فى البديع.

وصار قدامة حديث العلماء والنقاد فى عصره وبعد عصره، ولا يزال صداه وفكره النقدى قويا وسائدا ومستمرا فى تراثنا حتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن معاصرة الناقد "الناشئ الأكبر"[22] (٢٩٣هـ) ينسب إليه كثير من الدارسين أولية النقد، وينسب آخرون هذه الأولية إلى قدامة، ومن حيث يشيد بعض القدماء بالناشئ، يشيد آخرون بقدامة، ومن بينهم "التوحيدى" فى بعض كتبه وذكر له كتابا بعنوان "نقد الشعر" وهو مفقود[23]. ويقول التوحيدى عن الناشئ المتكلم، وأن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره[24]. ولا مجال هنا للمقارنة بن الناشئ وقدامة لأن تراث الناشئ النقدى مفقود.

ويحاول بعض الباحثين أن يأخذ مما ذكر ابن رشيق فى كتابه "العمدة" من بعض الآراء المفرقة ما يضىء سبيل البحث عن منهج نقدى للناشئ[25]، ولكن الضوء الخافت الذى يمكن أن يكشف عن بعض الآثار القليلة لنقد الناشئ، لا يوصل إلى شىء.

وعلى الجملة فلا يزال قدامة وكتابه "نقد الشعر" ومنهج هذا الكتاب النقدى، هو صاحب المقام الكبير فى تراث العربية النقدى حتى الآن.

---

(21) ص ٢٠ النقد العربى الحديث ومذاهبه.

(22) راجع: ٤١٧ - ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ٢١٧ الفهرست لابن النديم، ١٠/١٧ تاريخ بغداد، ٢/٢٧٧ وفيات الأعيان، ٨٥ مراتب النحويين، ٢/١٢٨ إنباه الرواة، ١/١٤٠ حسن المحاضرة، تاريخ النقد الأدبى عند العرب لإحسان عباس.

(23) ٢/٢٧٣ و٢/٦١٩ البصائر والذخائر للتوحيدى، ١٤٧ أصول النقد.

(24) ٢/١١٧ البصائر والذخائر.

(25) د . يوسف حسين بكار - مجلة الأديب اللبنانية عدد يونيو ١٩٧٤.

إعجاز القرآن

للباقلاني

-١-

من أصول كتب النقد التي الفت في القرن الرابع الهجري، هذا الكتاب القيم "إعجاز القرآن"، الذي ألفه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، المتوفى عام ٤٠٣ هـ - ١٠١٣ م في بغداد دار السلام.

ويقول مصطفى صادق الرافعي في الكتاب: إنه استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد، حتى عدوه الكتاب وحده لا يشرك العلماء معه كتابا آخر في خطره ومنزلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده[1].

ويجعل الدكتور زكي مبارك الكتاب صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع الهجري[2].

ولقد كان للباقلاني مذهب في النقد يرجع إلى فهم الأثر الأدبي جملة، وتحليل خصائصه، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية، وبيان منزلته البيانية والأدبية والفكرية مما يظهر بوضوح في كتابه "إعجاز القرآن"، الذي ترك آثارا كبيرة في النقد الأدبي، ولا زال معدوما من مصادر النقد وأصوله، وبخاصة منهجه في نقد الشعراء في قصائدهم الطوال، حيث لا ينقد بيتا أو أبياتا من قصيدة، ولكنه ينقد القصيدة كاملة، ويبين بوضوح رأيه فيها وفي شاعرية صاحبها، وبخاصة القصائد الأولى المتفق على رفعة محلها، وصحة نظمها. وجودة معانيها، وسحر بلاغتها، وإبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق

---

[1] ٢٠٠ إعجاز القرآن للرافعي.

[2] راجع ١٥ وما بعدها جـ٢، النثر الفني لزكي مبارك.

والبراعة والتفوق فى البلاغة .. وقد سار على هذا المنهج فى نقده لشعر امرئ القيس، والأعشى وأبى نواس والبحترى.

- ٢ -

والباقلانى من أعلام القرن الرابع الهجرى،ويقول عنه الجاحظ البغدادى فى كتابه "تاريخ بغداد": إنه كان أحسن الناس خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة[٣].

ويقول عنه ابن خلكان فى كتابه "وفيات الأعيان": كان فى علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه وكان موصوفا بحسب الاستنباط، وسرعة الجواب[٤].

وقال عنه معاصره الملك عضد الدولة البويهى المتوفى عام ٣٧٢هـ: ما فى مملكتى مثله، ولا للمسلمين فى عصره مثله. وكان الصاحب بن عباد الوزير البويهى المشهور المتوفى عام ٣٨٥هـ يصفه بأنه بحر معرق.

ووصفه الذهبى فى كتابه "سير أعلام النبلاء" بالإمام العلامة، ووصفه ابن العماد فى "شذرات الذهب"[٥]، بأنه مجدد الدين على رأس المائة الرابعة. وكتب عنه ابن تيمية[٦] بأنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى ليس فيهم لا قبله ولا بعده.

وقال عنه ابن خلدون فى المقدمة[٧] تصدر للإمامة فى طريقتهم - طريقة الأشاعرة - وهذبها ووضح المقدمات العقلية، التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد، وأن الغرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين.

---

[٣] ٥/٢٧٩ تاريخ بغداد.

[٤] ٢/٢٧٨ وفيات الأعيان طبعة ١٣٩٩هـ.

[٥] ٣/١٦٨ شذرات الذهب.

[٦] ص ٧٦ رسالة الفتوى الحموية الكبرى.

[٧] ص ٤٦٥ المقدمة، فصل علم الكلام.

ولقد ولد الباقلاني في البصرة، وانتقل منها شابا إلى بغداد حيث أقام في الكرخ، وصارت له حلقة علمية كبيرة يجلس فيها تلاميذه والمستفيدون من فضله وعلمه وأدبه، وما أكثرهم .. ثم ألف الكتب الجليلة، وتصدر مجالس العلم وحلقاته وطلبه الملك البويهي عضد الدولة فقصده في شيراز عاصمة الملك، وناظر المعتزلة في مجلس عضد الدولة وأفحمهم، فعلت منزلته عند الملك البويهي، وبعث به عام ٣٧١هـ إلى ملك الروم باسيليوس الثاني. الذي تولى الملك مدة طويلة وذلك في سفارة سياسية.

وتوفى عضد الدولة في شوال عام ٣٧٢هـ وقام بالأمر بعده ابنه صمصام الدولة، وكان الباقلاني أستاذا من أساتذته. وألف له كتاب "التمهيد" فعلت منزلته في البلاط البويهي، وكان من فقهاء المذهب المالكي وإليه انتهت رياسته، وعظمت منزلته في عصره، حتى توفاه الله إلى رحمته[٨].

ولقد ألف في نظم القرآن: الجاحظ، وأبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني[٩].

وألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي كتابا عنوانه "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" كما ألف في الإعجاز الروماني والخطابي.

وتجمعت في القرن الرابع آراء ومذاهب كثيرة في إعجاز القرآن الكريم، بعضها يذهب إلى أن الإعجاز يكمن في البلاغة العالمية التي جاء عليها نظم القرآن الكريم، وبعضها الآخر يذهب إلى أن سببه الصرفة، وهي صرف الهمم عن معارضة

---

[٨] راجع في ترجمته أيضا: روضات الجنات جـ٤، ص ٦١٦ - الديباج لابن فرحون ص ٢٦٧ - عيون التواريخ لابن شاكر جـ١٢، ص ٢٦٣. الملل والنحل للشهرستاني (٢ ص ١٢٩) - طبقات الشافعية للسبكي جـ٢، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ - وراجع مقدمة إعجاز القرآن بتحقيقي - ومقدمته بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر.

[٩] هو ابن صاحب "سنن أبي داود" سليمان أبي داود السجستاني الإمام (٢٠٣ - ٣٧٥هـ) أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل (راجع ١٧٥ - ١٧٧ جـ١) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد - مطبعة المدني بمصر.

كتاب الله، وبعضها يذهب إلى أن سببه ما تضمنه الكتاب الحكيم من الأخبار عن أحداث الزمان التى تقع فى المستقبل، أومن الأخبار عن أحداث وقعت فى الماضي السحيق أو غير ذلك.

والباقلانى فى كتابه لا يخرج فى قضية الإعجاز القرآني وأسبابها عن ذلك، ولا يأتى فيها بأمر جديد، بعد إضافة ظاهرة.

فهو فى كتابه يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويركز الكلام على بلاغة القرآن، فيذكر مظاهر هذه البلاغة ووجوهها وينفى أن تكون معرفة الإعجاز بسبب من البديع، ويوازن بين بلاغة القرآن وبلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يوازن بين بلاغة مختارات من الشعر العربي وبلاغة كتاب الله...

وفى هذه الموازنات الرائعة التى يبلغ فيها الباقلانى الغاية فى سمو المنهج النقدي، نلمس عمق الفهم لكل ما يتصل بالنقد من أحكام وموازين ومناهج فهو ينقد معلقة امرئ القيس:

فقا نبك من ذكرى حبيب منزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كلها نقدا دقيقا يقول: إن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة، والسلامة والانعقاد، والسلامة والانحلال والتمكن والاستعصاب. والتمهل والاسترسال، والتوحش والاستحراء، وله شركاء فى نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون فى بدائعها، ولا سواء كلام ينحت من الصخرة تارة، ويذوب تارة، وقول يجرى فى سبكه على نظام، وفى رصفه على منهاج، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد ومتباعدة،وشارده مطيع، ومطيعه شارد[١٠].

ثم يقول[١١]: وكنا أردنا أن نتصرف فى قصائد مشهورة، فنتكلم عليها، وندل على معانيها ومحاسنها ... ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة، وتصانيف وإن لم تكن

---

[١٠] إعجاز القرآن بتحقيق صاحب هذا البحث.

[١١] ٢٠٩، ٢١٠ المرجع نفسه.

مستقصاة ... ولم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض والنحو والمعاني وما عابوه عليه فى أشعاره وتكلموا به على ديوانه[١٢].

وينقد شعر امرئ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم نقدا لاذعا .. ثم ينتقل إلى البحتري فيقول[١٣]: أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحتري فى الصنعة به من الشغل فى تفضيله على ابن الرومى، أو تسوية ما بينهما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس ومن فى طبقته، وكذلك أبو نواس، إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه. من أهل عصره، وإنما يقع التباين اليسير، والتفاوت القليل.

ويقول عن امرئ القيس[١٤]: وهو كبيرهم - أي كبير الشعراء - الذى يقرون بمقدمته، وشيخهم الذى يعترفون بفضله، وقائدهم - الذى يأتمون به، وإمامهم الذى يرجعون إليه.

ويقول عن البحتري[١٥]: وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى.

وعن أبى نواس[١٦]: وكذلك نجد لأبى نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى، ما يتحير فيه أهل اللفظ، ويقدمه الشطار الظراف على كل شاعر ويرونها لنظم غيره.

ويعرض الباقلانى للموازنة بين قول ابن الضحاك:

كأنه - نضب كأسه - قمر ... يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقول أبى نواس:

إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل فى داج من الليل كوكبا

---

(١٢) ٢١٠ المرجع السابق.

(١٣) ص ٢٤١ المرجع نفسه.

(١٤) ٢٤١ المرجع نفسه.

(١٥) ٢٤٠ المرجع نفسه.

(١٦) ٢٤ المرجع نفسه.

فيذهب إلى أن الخليع - الحسين بن الضحاك - أبدع في المعنى، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه. لأن لفظ (يكرع) عنده ليس بصحيح، وفيه ثقل بين "وتفاوت" وفيه إحالة لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم.

وأما قول أبي نواس "إذا عب" فكلمة قد قصد فيها المنانة، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملح، وقوله "شارب القوم" فيه ضرب من التكلف الذي لابد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله "خلته يقبل في داج من الليل كوكبا" تشبيه بحالة واحدة من أحواله وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما تناوله ليلاه، فليس بتشبيه مستوفى، وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع:

أبصرته والكأس بين فم	منه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها	قمر يقبل عارض الشمس[17]

ويعرض الباقلاني لقصيدة البحتري المشهورة "أهلا بذلكم الخيال المقبل"، وهي التي كان يقول ابن العميد فيها:

إنها أجود شعر البحتري، وكان البحتري يسمي بعض أبياتها: عروق الذهب .. فينقدها الباقلاني نقدا شديدا[18].

ويفضل البحتري على أبي تمام وابن الرومي بديباجة شعره، وتقدمه بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله[19].

ويستجيد من شعر ابن المعتز الفخر[20] ويرفع من منزلته فيه حتى ليقول: فانظر في القصيدة كلها، ثم في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق به الفخر خاصة، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه، ما لا يليق بغيره. بل ينفر عن سواه.

---

(17) ٢٤٢، ٢٤٣ إعجاز القرآن.

(18) ٢٤٢ - ٢٦٤ المرجع نفسه.

(19) ٢٦٥ - ٢٦٦ المرجع نفسه.

(20) ٢٩١، ٢٩٢ المرجع نفسه.

ويميز شعر المتنبي فى الشجاعة وأبى فراس فى الفخر، وأبى نواس فى الشطارة[٢١]، وذي الرمة فى وصف المهامة والبوادي[٢٢].

- ٤ -

وكتاب "إعجاز القرآن" يحتوى على الكثير من آراء النقاد فى الحكم على الشعر والشعراء.

والحديث فى الإعجاز يستتبع الحديث فى النقد فى أغلب الأمر. إذ يضطر المتحدث إلى عرض النماذج من البلاغة المعجزة فى القرآن الكريم وبلاغة الشعراء فى الشعر العربي،وكثيرا ما تضطره المناسبة إلى الموازنة بين شعر وشعر وشاعر وشاعر، إلى غير ذلك من الأحكام النقدية، التى يسوقه الحديث إليها.

والكتاب يعد من أصول كتب الأدب والنقد فى التراث العربي.

---

(٢١) ٢٩٢ المرجع نفسه.

(٢٢) ٢٩١ – ٢٩٣ المرجع.

مصادر فى الأدب

- أولا -

أ- فى الشعر:

١ - المفضليات للإمام الضبي (-١٧٨هـ)[1]، جمع فيها مائة وعشرين قصيدة أكثرها مما أدبية المهدى وهو ولى للعهد لأبيه الخليفة المنصور العباسي - وأكثر هذه المختارات من الشعر الجاهلي.

٢- السير الطوال أو المعلقات، وهى سبع قصائد لسبعة شعراء جاهليين، كان حماد الراوية (٩٥ - ١٥٥هـ) هو أول من جمعها وأطلق عليها هذا الاسم.

٣- جمهرة أشعار العرب لأبى زيد الأنصاري (-٢١٤هـ)، ويمتاز الكتاب بتنسيق القصائد وحسن تقسيمها وتبويبها وترتيبها وإطلاق أسماء نقدية عليها كما يمتاز بمقدمته النقدية الرائعة.

والكتاب مقسم إلى سبعة أقسام هى: المعلقات - المجمهرات - المنتقيات - المشوبات - المذهبات - المراثي - الملحمات .. وكل قسم منها يشتمل على سبع قصائد لسبعة شعراء. وهذا الفكر الأدبي من مقدمات النقد للشعر القديم.

٤- الأصمعيات مختارات لأبى سعيد الأصمعي (-٢١٦هـ) لنحو ٧٢ شاعرا من الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين والشعر الإسلامي.

٥- حماسة أبى تمام (-٢٣١هـ) وهى الحماسة الكبرى والحماسة الصغرى له أيضا، وعنوانها "الوحشيات".

---

[1] راجع: رسالة ماجستير قدمها على علام الى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية بعنوان: المفضليات ثروة لغوية وأدبية، ورسالة ماجستير للدكتورة مي يوسف خليف مقدمة لآداب جامعة القاهرة عام ١٩٨٨ بعنوان القصيدة الجاهلية فى المفضليات.

ومن كتب الحماسة: حماسة البحتري (-٢٨٤هـ)، وحماسة ابن الشجري (٤٥٠ - ٥٤٢هـ)، ومختارات ابن الشجرى، والحماسة البصرية لصدر الدين بن الحسن البصري (من القرن السادس)، وحماسة الخالدين.

٦- مختارات البارودى - ٤ أجزاء، وتضم مختارات لأعلام الشعر العباسي: بشار - أبو نواس - العباس بن الأحنف - أبو العتاهية - مسلم - المتنبى - المعرى - ابن هانئ - مهيار - الطغرائى.

وقد قسم البارودى مختاراته إلى سبعة أقسام هى: الأدب - المديح - الرثاء - الصفات - النسيب - الهجاء - الزهد.

٧- من تراثنا الأدبي - جزءان - للدكتورين خفاجي وأبو الخشب.

ب - موسوعات فى الأدب:

وهى كثيرة، ومن أوائلها الكتب التالية:

١- البيان والتبيين، والحيوان لأبى عثمان الجاحظ (١٦٠ - ٢٥٥هـ).

٢- عيون الأخبار لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) وهو مقسم إلى عشرة أبواب أو كتب: كتاب السلطان - الحرب - السؤدد - العلم والبيان - الطبائع والأخلاق - الزهد - الإخوان - الحوائج - الطعام - النساء.

نشره المستشرق الألماني بروكلمان فى ألمانيا وطبع فى مصر وبيروت.

٣- الكامل للمبرد (-٢٨٥هـ) وشرحه سيد بن على المرصفى (١٩٣١م) فى سبعة أجزاء مطبوعة فى القاهرة.

٤- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٩هـ)، وقد قسم ابن عبد ربه الكتاب إلى أقسام شبيهة بما فعل ابن قتيبة فى عيون الأخبار، فالباب الأول عنده هو باب السلطان والثاني خاص بالحروب على نمط ما فعل ابن قتيبة وكذلك يتشابه الكتابان فى أبواب أخرى مثل: العلم والأدب - الزهد - الطعام - الطبائع - النساء. ويظن أن العقد الفريد احتذاء كامل لعيون الأخبار لابن قتيبة.

٥- الأمالى[٢] لأبى على القالي (٣٥٦هـ) وهو مطبوع فى مصر فى جزءين. يليه جزء ثالث والنوادر، ثم جزء رابع.

٦- زهر الآداب للحصرى (٤٥٣هـ) وهو أبو اسحاق إبراهيم بن على القيرواني وهو غير الحصرى الشاعر أبو الحسن على بن عبد الغنى القيرواني (٤٨٨هـ) صاحب قصيدة "يا ليل الصب متى غده".

وهو مطبوع فى أربعة أجزاء بتحقيق زكى مبارك، ثم طبع بعد ذلك بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

٧- نهاية الأرب للنويرى (٧٣٣هـ) فى ٣٢ مجلدا طبع بعضه فى القاهرة ولم يطبع باقيه بعد، والكتاب مقسم إلى خمسة فنون:

أ- الفن الأول فى السماء والآثار العلوية والأرض.

ب- الفن الثاني فى الإنسان وما يتعلق به.

جـ- الفن الثالث فى الحيوان.

د - الفن الرابع فى النبات.

هـ- الفن الخامس فى التاريخ وهو أطول أقسام الكتاب.

وكل قسم من هذه الأقسام مقسم إلى جملة أبواب[٣].

٩- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى - ٧ أجزاء.

١٠- صبح الأعشى - للإمام القلقشندى (٨٢١هـ) وهو مقسم إلى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، وطبع فى ١٤ جزءا فى مصر.

١١- الوسيلة الأدبية لحسين المرصفى أستاذ البارودى - وهو مطبوع.

١٢- المواهب الفتحية - لحمزة - فتح الله (١٩١٨م).

---

[٢] سميت بالأمالى مجموعات كثيرة من كتاب المحاضرات والمجالس والدروس ومن بينها، أمالى ابن الشجرى - أمالى الزجاج (٣١٦ هـ) - أمالى المرتضى (٤٣٧ هـ)... الخ.

[٣] طبع من الكتاب ١٨ جزءا وما زال باقيا منه ١٤ جزءا.

ومن الكتب الجامعة فى الأدب: وحي الرسالة للزيات - وحي القلم للرافعي - فيض الخاطر لأحمد أمين - مطالعات للعقاد.

ج- كتب فى النقد: وبينها:

أ- كتاب فحولة الشعراء للإمام الأصمعي (٢١٦ هـ).

ب- كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (٢٣١ هـ)[٤].

ح- كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ).

د - كتاب الموازنة بين الطائيين "أبى تمام والبحتري" للآمدى المتوفى عام ٣٧١ هـ.

هـ- كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومة للقاضى الجرجانى (٣٩٢هـ).

و - كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري (٣٩٥ هـ) أي صناعة النثر وصناعة الشعر.

ز - كتاب إعجاز القرآن للباقلانى (٤٠٣ هـ)[٥].

ح- كتاب العمدة لابن رشيق (٤٦٠ هـ) فى صناعة الشعر ونقده.

ط- نقد النثر - ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ).

ي- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى الأمير (٤٦٦هـ).

ك - كتاب المثل السائر لابن الأثير.

ومن كتب النقد الحديث. كتاب النقد العربي الحديث ومذاهبه لخفاجى؛ وكتاب مدارس النقد له أيضا.

---

[٤] ذكرنا كتاب طبقات الشعراء لابن سلام هنا لأنه من أهم كتب النقد فى القرن الثالث، وسنذكر بعد ذلك كتاب "طبقات الشعراء" لابن المعتز فى كتب التراجم لأنه ليس له صبغة نقدية، وهناك كتب كثيرة فى طبقات الشعراء أكثرها مخطوط تبلغ نحو ٤٢ كتابا - راجع صفحة ٥٥٤ - ٥٥٨ من كتابي الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - طبع القاهرة ١٩٤٩ م.

[٥] طبع عدة طبعات فى القاهرة، ومنها طبعة بتعليقات لي.

د- كتب في التراجم الأدبية: ومن بينها:

أ - كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) فى عشرين جزءا، وهو مطبوع فى القاهرة، وبيروت وغيرهما.

ب- كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز (٢٩٦ هـ).

ج- يتيمة الدهر للثعالبى (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) وهو تراجم لأدباء القرن الرابع الهجري فى مختلف أنحاء العالم الإسلامي - وهو مطبوع فى أربعة أجزاء وقسمه الثعالبى إلى أربعة أقسام.

الأول: فى شعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس.

والثاني: فى شعراء العراق.

والثالث: فى شعراء فارس وجرجان.

والرابع: فى شعراء خراسان وما وراء النهر.

د - الذخيرة لابن بسام (٥٤٢ هـ) وهو تراجم لأعلام شعراء الأندلس، وقد نشر منه فى القاهرة ثلاثة أجزاء.

هـ- معجم الشعراء للمرزبانى (٣٧٤ هـ).

و - معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) وهو مطبوع فى عشرين جزءا.

ز - وفيات الأعيان لابن خلكان.

ح - كتاب نفح الطيب للقمري الأندلسي (٩٩٢ - ١٠٤١ هـ) ويحتوى على ترجمة مفصلة للسان الدين بن الخطيب الوزير (٧٧٦هـ)،وتراجم لأعلام الأندلس وشعرائها، ويحتوى الكتاب على مقدمة وقسمين كبيرين:

١- فالقسم الأول فى الأندلس وحياة المسلمين فيها.

٢- والقسم الثاني فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب.

ومن كتب الترجمات الحديثة: **رائد الشعر الحديث لخفاجى حافظ وشوقي لطه حسين - الرافعى للعريان - ابن الرومي للعقاد.**

- ثانيا -

وكان هذا هو المنهج العربي القديم في دراسة الأدب، ولما جاء المستشرقون وعنوا بدراسة الأدب العربي. أخذوا يدرسونه على نمط تاريخي فابتكروا علم (تاريخ أدب اللغة العربية) بأصوله المعروفة[٦]، ووضع بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦) فيه كتابه المشهور "تاريخ الأدب العربي" على هذا النمط الاستشراقى من العناية بتقسيم الأدب إلى عصور ودراسته في كل عصر دراسة مفصلة.

وكان أول من ابتكر هذا النمط الاستشراقى في دراسة الأدب العربي الإيطاليون في القرن الثامن عشر، ثم أخذه عنهم المستشرقون الألمان في القرن التاسع عشر، وقد ظل هذا العلم مجهولا في السرق العربي، وكان أول من نقله عنهم حسن توفيق العدل (١٨٦٢ - ١٩٠٤) الذى درسه فى ألمانيا ثم عاد إلى تدريسه في دار العلوم - بالقاهرة وألف فيه كتابا صغيرا سماه "تاريخ آداب اللغة العربية".

وعلى ضوء هذا المنهج الاستشراقى فى دراسة الأدب العربي ظهرت كتب عديدة من اشهرها:

١- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي - ٣ أجزاء.

٢- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان - ٤ أجزاء.

٣- في الأدب الجاهلي لطه حسين.

٤- الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى - ٣ أجزاء.

٥- تاريخ الأدب العربي للزيات.

---

[٦] أول المؤلفين فيه من المستشرقين:

١-جوزيف هامر بورجشتال النمسوي له بالألمانية كتاب تاريخ الأدب العربي "سبعة أجزاء" (١٨٥٠ - ١٨٥٦)

٢-فون كريمر النمسوى (١٨٢٨ - ١٨٨٩) له تاريخ الحضارة فى الشرق في ظل الخلفاء نشره عام ١٨٧٧ فى مجلدين

٣-وتلاهما بروكلمان وظهرت الطبعة الأولى من كتابه "تاريخ الأدب العربي" عام ١٨٩٨، ثم اتبعه بطبعات وإضافات وملاحق متوالية حتى عام ١٩٤٩.

٦- الأدب العربي - للسباعي بيومي - ٣ أجزاء.

٧- فجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين.

٨- المجمل، والمفصل لطه حسين وآخرين.

٩- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.

الحياة الأدبية فـى العصر الجاهلي - طبعة أولى ١٩٤٩ - طبعة ثانية ١٩٥٨ فى اكثر من ٦٠٠ صفحة - تأليف محمد عبد المنعم خفاجي.

الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - تأليف محمد عبد المنعم خفاجي.

الحياة الأدبية في عصر بنى أمية - الحياة الأدبية فـى العصر العباسي- الآداب العربية في العصر العباسي الأول - الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسي الثاني - الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد - الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام - الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين.

قصة الأدب فى مصر (٥ أجزاء) قصة الأدب فى الأندلس (طبعة أولى فى خمسة أجزاء، وطبعة ثانية قصة الأدب المهجرى في جزئين)، وكلها من تأليف محمد عبد المنعم خفاجي.

رسالة الغفران

لأبي العلاء

- ١ -

أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩هـ / ٩٧٥ - ١٠٥٩م) من أشهر الشعراء العرب. ومن أبعدهم صيتا، وذيوع وذكر: و"رسالة الغفران" له شهرة، وهي رحلة تخيلها أبو العلاء في الصراط والجنة والنار، كي يبدي آراءه في مسائل الدين والأدب والنقد واللغة من خلالها.

وتذكرنا "رسالة الغفران" برسالة ابن شهيد "التوابع والزوابع"، وبالكوميدية الإلهية لدانتي، وبالفردوس المفقود لملتون.

و"التوابع والزوابع" تشابه "رسالة الغفران" للمعرى مشابه كبيرة، فالموضوع واحد وهو عرض المشكلات الأدبية والبيانية والفكرية بطريقة قصصية، والخلاف في جوهر الموضوع إنما يرجع إلى روح الأديبين الكبيرين: ابن شهيد والمعرى، فابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية، وأبو العلاء يحرص على عرض المشكلات التي تتعلق بالدين والفكر والفلسفة.. وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى أبي بكر بن حزم، ويوجه المصري رسالته إلى ابن الجارح علي بن منصور الحلبي الأديب الشاعر "٣٥١ - ٤٣٠ هـ" الذى كان يمدح الوزير أبا الحسن المغربي وآله، ثم لما ذهب سلطانهم هجاهم، و"التوابع والزوابع" رسالة طريفة وفيها فكاهات حلوة، وأسلوبها يميل فيه ابن شهيد إلى السجع، وكان مولعا بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه، وحريصا على إظهار تفوقه عليهم. ويرجع د. زكي مبارك في كتابه "النثر الفني" إن ابن شهيد قد ألفها ما بين عامي ٤٠٣ هـ و٤٠٧ هـ، لقوله فيها "افتضى على لسانه عند المستقبل"، والمستعين حكم ما بين عامي (٤٠٢ و٤٠٧هـ) حين مات مقتولا في العام الأخير ..

وهذا النص لا يدل على ذلك، فمن الجائز أن يكون ابن شهيد قد قال ذلك بعد مقتل المستعين عام ٤٠٧هـ لا فى حياته .. أما رسالة الغفران فيرجح أنها ألفت عام ٤٢٧هـ لقول المعرى فيها: "لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب فى سنة ٤٢٧هـ اسمه فلان بن فلان". ويرجح د. زكى مبارك أن رسالة ابن شهيد توفى عام (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) كتبت قبل رسالة المعرى بعشرين سنة، من حيث يرجح أغلب النقاد أن رسالة الغفران هى الأصل الذى احتداه ابن شهيد، ويعرض ابن شهيد فى رسالته صورا من شعر الشعراء وينقدها، ويتحدث عن التقائه بشياطين الشعراء وعما جرى بينهم من مناظرات وحوار آدمي.

على أن الرسالتين ترتكزان فى أساسهما على رحلة الإسراء والمعراج الروحية. والغفران أشمل وأعمق وأكثر غنى فى جوانبها الفنية والقصصية من "التوابع والزوابع".

وكان ابن القارح قد بعث برسالة إلى أبى العلاء، فرد عليها أبو العلاء برسالة الغفران.

ويعلل كامل كيلانى لتسميتها الغفران بأن الفكرة الرئيسية فيها، والتي دفعته إلى إنشائها، مناقشة من فازوا بالمغفرة، ومن حرموها فى الدار الآخرة. وكان المعرى يكثر فيها من سؤال الذين يلقاهم فى الجنة بقوله: "بم غفر لك؟" كما كان يكثر من سؤال من يجده فى النار: "لم لم يغفر لك قولك"..

ويبدأ المعرى الرسالة بقوله، يخاطب ابن القارح:

وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور، وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة وفى قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور .. ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة والذهب تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء، بدليل الآية: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه".

ثم يقول: وفى تلك السطور كلم كثير كله عند البارئ - تقدس - أثير. وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ الاجتناء.

ويصور أبو العلاء ابن القارح وقد ركب نجيبا - أى جملا كريما - من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر، ويسير به فى الجنة على غير منهج. ومعه شيء من طعام الخلود ويلتقى بالأعشى ويحاوره، كما يلتقي بزهير، وبعبيد بن الأبرص، وعدى بن يزيد وبأبى زؤيب الهزلى، وبالنابغتين وبلبيد.

ويتلقى برضوان خازن الجنة، يرفع صوته ويقول له: يا رضوان، يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفراءيس، ألم تسمع ندائي بك، واستغاثتي إليك. فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذى تطلبه أيها المسكين؟ فيرد عليه: أنا رجل لا صبر لى على العطش ولقد استطلت مدة الحساب، ومعي صك - أي وثيقة - بالتوبة، وهى للذنوب كلها ماحية. وقد مدحتك بأشعار كثيرة، وسميتها باسمك، فقال: وما الأشعار؟ فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة - الدنيا - يتقربون به إلى الملوك والسادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدخول، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف، ولا ريب أنى ممن يرجو المغفرة، وتصح له بمشيئة الله تعالى، فقال: إنك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات، هيهات.

ويلتقى بحمزة سيد الشهداء، فينشده مدحا له فيه، ويستشفع به، فيحيله على ابن أخيه على بن أبى طالب ليخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره.

ويتركه إلى شيخه أبى على الفارسي .. كل ذلك على لسان ابن القارح على بن منصور بن طالب الحلبي الذى كتب المعرى الرسالة من أجله.

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراح من أهوال الموقف، ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز، فتأخذه، ويقف عند رسول الله، فيشفع له، ويؤذن له فى الدخول، ويعبر الصراط، فلما صار إلى باب الجنة وقف دونه رضوان يطالبه بالجواز، إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به، وهنا يلتفت إليه إبراهيم بن رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ويجذبه جذبة يدخل بها الجنة، بعد أن أقام فى الموقف ستة شهور.

ويحاور حميد بن ثور وليبدا فى الجنة وفى الجنة يحضر المآدب، ويسمع الغناء، ويلتقى بالشعراء ويسحره جمال الحور، ويصنع رحلة إلى جنة العفاريت، فيلتقى بالجن، ويسمع شعرهم ولغتهم، ويرى الحطيئة، والخنساء، وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة، ويطلع فيرى إبليس، ويشاهد بشارا، ويتحدث إلى امرئ القيس، وإلى عنترة وعلقمة، وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكرى، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، والأخطل والمهلهل، والشنفرى وتأبط شرا ..

ثم يعود إلى محله فى الجنة، فيلقى آدم عليه السلام، ويستمر به المطاف ليلتقي بحورية، ثم بالرجاز: رؤبة والعجاج.

ويفيض فى الجزء الأخير من الرسالة فى الحديث عن النفاق والزندقة، والزنادقة. وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ، ويجره الحديث إلى ابن الرومي، وإلى أبى تمام، وأبى مسلم الخراسانى، وإلى ابن الراوندى وسواهم ..

- ٣ -

إن هذه الرسالة التى تحمل فكر المعرى ونظرته إلى الحياة، وآراء كثيرة له فى نقد الشعر والشعراء، لهى من أنفس الذخائر فى تراثنا العربي الخالد .. وهذه الرحلة الطريفة إلى العالم الآخر تحمل روحا قصصية عالية، تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الأسطورية، أو الخيالية لو صيغت بأسلوب جديد.

ومن الطريف أن نعرف أن فى دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنتان منها فى مكتبة تيمور، كما توجد نسخة من الرسالة فى مكتبة سوهاج وأخرى فى مكتبة جامعة الإسكندرية.

وقد طبعتها مكتبة أمين هندية بالقاهرة عام ١٩٠٣، وكتب خاتمة لها عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان. ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلانى.

وفى عام ١٩٥٠ نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الأستاذة عائشة عبد الرحمن، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣، وقد استعانت الدكتورة بنت الشاطئ بنسخة خطية من مكتبة كوبريللى زاده باستانبول موثقة النسب بأبي العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزى.

وكانت الرسالة لقيت عناية كبيرة فى دوائر المستشرقين. فنشر نيكلسون عام ١٩٠٢ ملخصا للقسم الثاني منها مترجما فى المجلة الأسيوية الملكية وكان قد حصل على مخطوطة للرسالة كانت فى مكتبة المستشرق شكسبير، وقدم نيكلسون عام ١٩٠٠ وصفا موجزا للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الأول منها مع فقرات كثيرة من الأصل العربي.

وفى عام ١٩١٦ ظهرت فى مدريد باللغة الأسبانية دراسة عن الرسالة للمستشرق الأسباني المشهور بلاسيوس أكد فيها أن أصولا إسلامية، من بينها "رسالة الغفران" قدكونت أسس الكوميديا الإلهية، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقارن بينها وبين نصوص من كوميديا دانتى.

– ٤ –

ورسالة الغفران تعد فى مقدمة تراث أبى العلاء، الذى وصلنا، وحفظته الأقدار لنا من الضياع، ويضاف إليها ديوان سقط الزند، واللزوميات، وعبث الوليد، وملقى السبيل الذى نشره حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة المقتبس – السنة السابعة – عن مخطوطة بالاسكوريال.

كما بقى من تراث المعرى مجموعة من رسائله نشرها مرجليوث عام ١٨٩٨ وطبعت فى إكسفورد.

وكذلك الفصول والغايات، وقد طبع جزء منه فى القاهرة بتحقيق الزناتى.

وكذلك رسالة الملائكة التى نشرت فى دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندي.

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى.

والذى فقدناه من تراث المعرى كثير ومنه كتاب "الايك والغصون" الذى زادت أجزاؤه على المائة .. وغير ذلك.

على أن أدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر، وإلى الجنة والنار مدين لرسالة الغفران ولصاحبها أبى العلاء بدين كبير، فالرسالة فى جوهرها وروحها عمل فني كبير وإبداع أدبي لا مثيل له.. ومع أن فى رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة، فإن أبا العلاء ولا ريب قد احتذاهما فى "الغفران"، وتأثر بها تأثرا كبيرا، كما تأثر برحلة الموبد الزرادشتى إلى الأعراف والجنة والنار.

وتصور لنا الرسالة - الغفران - عبقرية فكر أبى العلاء تصويرا رائعا، فهذا الحوار الرفيع فيها، وهذا الخيال الممتع فيها، وهذا الخيال الممتع المتأنق الكثير التنقل، وهذا التصوير الدقيق البارع، وهذا الفكر الشرود الذى يلتقت إلى الدقائق فى يقظة ووعى تام .. كل ذلك عناصر أصيلة فى إبداع حقيقي ينفرد به شيخ المعرة أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الذى نال اهتمام الأدباء والشعراء والنقاد والدارسين والباحثين ما لم ينله شاعر من قبل.

وكم كانت الأحداث والأيام والخطوب تعصف بأبي العلاء فى شتى مراحل حياته، مرحلة بعد مرحلة، وجيلا بعدجيل، ووقتا إثر وقت .. رحمه الله.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

لجلال الدين السيوطى

(٨٤٩ - ٩١١هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)

- ١ -

كان جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥م) مفخرة العقل المصرى فى القرن التاسع الهجرى، وكان مفتونا بحب مصر وتراثها الروحي والفكري إلى حد بعيد، ويعد إماما مجددا من أشهر أعلام مصر وعلمائها، وليس مثله أحد فى كثرة مؤلفاته وجودتها حتى كأنه البحر عطاء وسخاء.

وقد عاش حياته كلها وهو يؤمن بوطنه الإسلامي، وبرأس هذا الوطن ورائده وقائدة، مصر الخالدة إيمانا لا يعتريه ريب، ويعجب إعجابا كبيرا بحضارتها الدينية والفكرية والمادية، إعجابا بتاريخها وعروبتها وإسلامها وبعلمائها ومفكريها.

وكان السيوطى مولعا بالتاريخ المصري، ومتأثرا بمدرسة المؤرخين المصريين، الذين عاشوا فى القرن التاسع الهجري عامة، والذين عاشوا قبل ذلك يسجلون مفاخر مصر وآثارها وتراثها فى مؤلفاتهم الزاخرة. وكان فيه انطباعات كثيرة من آراء ابن خلدون وفكره التاريخى، وكان ابن خلدون قد هاجر من تونس إلى القاهرة عام (١٣٨٢م / ٧٨٤هـ)، وأقام فيها، وألقى محاضراته فى الجامع الأزهر وفى المدرسة القمحية وغيرهما، وأعاد تنقيح مقدمته المشهورة وكتابتها، وتوفى بالقاهرة عام (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، أى قبل وفاة السيوطى بمائة عام ميلادي، وكذلك تأثر السيوطى بالمقريزى وابن حجر وغيرهما من أعلام المؤرخين المصريين فى القرن التاسع، وكان خاتمتهم فى هذا القرن وما بعده ابن إياس صاحب كتاب "الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع".

وكان السيوطي من أسرة تنتمي في جذورها الأولى إلى أصول بغدادية، وهاجرت إلى مصر في عصر الدولة الأيوبية على وجه التقريب، ولعل مما يؤيد هذا تقرب هذه الأسرة إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة، ويجعل السيوطي عنوان كتاب من كتبه "المتوكلي" نسبة إلى الخليفة العباسي "المتوكل على الله" في القاهرة، وكان والد السيوطي من كبار علماء عصره وقضاته، ولي مشيخة الجامع الشيخوني في القاهرة وتولى السيوطي نفسه كذلك تدريس الفقه فيه أيضا، ثم تولى منصب المشيخة في المدرسة الشيخونية، وهو منصب كان يشغله أبوه من قبل، كما شغله أستاذه الكمال الهمام الحنفي المتوفى عام ٨٦١هـ، وتولى السيوطي أيضا منصب الأستاذية في الحديث والفتوى في الجامع الطولوني، ودرس الحديث بالخانقاه الشيخونية، وتولى مشيخة التصوف بمقبرة برقوق الناصري، ثم مشيخة المدرسة البيبرسية.

وعاش السيوطي حياته كلها مع التدريس والتأليف والفتيا والكتاب، ومع مريديه وتلاميذه، ولكنه في العشرين سنة الأخيرة من حياته اعتزل الناس، ولزم بيته في الروضة للقراءة والكتابة والتأليف،وكان من ثمرة ذلك كله كتبه الموسوعية الكبيرة في مختلف فروع الثقافة الإسلامية التي كان من أئمتها وأعلامها الكبار.

وقد بلغت مؤلفاته ستمائة كما يذكر المؤرخ الكبير المعاصر له ابن إياس. ويذكر تلميذه الداودي (ت ٩٤٥هـ) الشافعي المحدث في انبهار بعظمة شيخه السيوطي أن شيخه كان في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله.

ويذكر بروكلمان أن مؤلفات السيوطي تبلغ أكثر من أربعمائة، وأحصى له المستشرق "فلوكل" ٥٦١ مؤلفا، ويذكر عديدون من معاصريه وغيرهم أن مؤلفاته بلغت الألف مؤلف.

وليس في العالم من بلغ ما بلغه السيوطي من كثرة المؤلفات سوى "رامون لول" الأسباني أحد كتاب العصور الوسطى، الذى بلغت مؤلفاته نحو الخمسمائة .. وقد انتشرت كتبه في العالم الإسلامي كافة، وأقبل عليها العلماء والطلاب بشوق ولذة.

ويعتمد السيوطى على العقل والنقل، وأضاف إضافات كثيرة وجديدة إلى ما سبق إليه العلماء قبله. وكان يعد نفسه المبعوث الإلهي فى القرن التاسع الهجري، ليجدد للأمة الإسلامية دينها، مصداقا للحديث الشريف: "إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه لأمة من يجدد لها دينها".

ومن عظمة إيمان السيوطى بالفكر المصري الإسلامي أنه قال:"ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس أكثر القرون مصريون، عمر بن العزيز فى المائة الأولى، والشافعي فى الثانية، وابن دقيق العيد - المتوفى عام ٧٠٢هـ - فى السابعة، والبلقينى - ٧٩١ - ٨٦٨هـ - فى الثامنة" ثم استدرك السيوطى الذى يرى نفسه هو إمام المسلمين فى القرن التاسع الهجري فيقول: "وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من مصر" ..

(حسن المحاضرة فى ترجمة السيوطى لنفسه).

وهو بذلك يعنى نفسه.

- ٢ -

وكتاب السيوطى "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" هو من أهم الموسوعات التاريخية التى كتبت عن مصر الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع، ولم يفت الإمام جلال الدين السيوطى أن يؤرخ فيه للفكر المصري، وللآثار والخطط المصرية حتى عصره .. ويعنى السيوطى بكلمة مصر "مصر الفسطاط" مدينة عمرو بن العاص، وبالقاهرة "القاهرة المعزية" مقر الأزهر الشريف.

ويبدو أن هذا الكتاب قد ألفه السيوطى فى أواخر حياته، ففي ترجمته لنفسه فيه يقول عن نفسه فيما يقول: "وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر"، وإذا كانت وفاة السيوطى عام ٩١١هـ فلعله قد ألفه فى نهايات القرن التاسع.

طبع "حسن المحاضرة" طبعات كثيرة منذ أواسط القرن التاسع الميلادي حتى اليوم، ويذكر سركيس أغلب هذه الطبعات، وقد اعتمدت فى كتابي لهذا المقال على طبعة الطبعة الشرفية المطبوعة عام ١٣٢٧هـ. وقد طبع فى القاهرة طبعة جديدة عام ١٩٦٧ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ومن قبل طبع جزء صغير منه

مع ترجمة لاتينية فى خمسين صفحة فى أوبسالا عـام ١٨٣٤م باهتمام ترنبرج. وفـى دار الكتب المصرية عدة نسخ خطية له، وفى مكتبة جامعة الرياض - سعود حاليا - نسخة منه برقم ١٠٥٦، تم نسخها عام ١٠٠٦هـ، وتقع فى ٢٨٣ ورقة.

وللسيوطى آثار كثيرة فى التاريخ من مثل كتبه تاريخ الخلفاء، وتاريخ السلطان الأشرف قايتباى، وتاريخ الصحابة، وتاريخ أسيوط، ومن أجلها: حسن المحاضرة.

وله فى التراجم لأعلام الثقافة الإسلامية كتب كثيرة منها: طبقات المفسرين، طبقات الحفاظ، طبقات الأصوليين، طبقات الشافعية، طبقات اللغويين (بغية الوعاة)، طبقات الأولياء الذى سماه "حلية الأولياء" تقليدا لاسم كتابي ابن نُعيم "حلية الأولياء" طبقات الكتاب، طبقات الشعراء، طبقات النحويين، مناقب أبى حنيفة، مناقب مالك، نظم العقيان، فى أعيان الأعيان (وهو مائة ترجمة لأعلام عصره)، وقد نشره فيليب حتى، الرحلة المكية، الرحلة الفيومية، الرحلة الدمياطية .. إلخ.

- ٣ -

فى مقدمة "حسن المحاضرة" يذكر السيوطى مصادره لكتابه، من مثل:

- فتوح مصر لابن الحكم.
- فضائل مصر للكندى.
- تاريخ مصر لابن زولاق.
- تاريخ مصر لابن يونس.
- الخطط للمقريزى.
- المسالك لابن فضل الله.
- الإصابة لابن حجر.
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى.
- تاريخ الإسلام للذهبى، والعبر فى أخبار من غبر له أيضا.
- البداية والنهاية لابن كثير.

وفى صدر مقدمة الكتاب يقول السيوطى: هذا كتاب سميته: "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة"، أوردت فيه فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للوحيد نعم الأنيس.

ثم يتحدث السيوطى فى الجزء الأول من الكتاب عن الآيات القرآنية والأحاديث التى ورد فيها ذكر مصر، تنويها بها، وتشريفا لها.

ويتكلم عن تاريخ مصر القديمة قبل الفتح الإسلامي مما اطلع عليه من روايات ونصوص للمؤرخين.

ويذكر الفتح الإسلامي لها طويلا، ومن دخل مصر من الصحابة ثم التابعين، وتابعي التابعين، ويفيض فى التنويه بالتاريخ الفكري والعلمي لمصر، وفى الحديث عمن ظهر فى مصر من الأئمة المجتهدين،ومن رواة الحديث، ومن المحدثين والفقهاء والقراء ومن نبغ فيها من الفلاسفة والأطباء والمهندسين وغيرهم.

وفى الجزء الثاني من الكتاب يتابع السيوطى الحديث عن وطنه الخالد،فيتحدث عن الجوانب السياسية، وعن أمراء مصر وملوكها منذ الفتح الإسلامي إلى عصر المؤلف. ويذكر ولاة مصر وملوكها من الفاطميين والأيوبيين وسلاطينها من المماليك،والخلفاء العباسيين الذين جلسوا فيها على عرش الخلافة العباسية فى القاهرة.

ويتحدث عن الوظائف السياسية فى عصره، وعن قضاة مصر، وعن آثارها الإسلامية وجوامعها الكبرى: جامع عمرو، جامع ابن طولون، الجامع الأزهر، وسواها.

كما يتحدث عن المدارس العلمية فى القاهرة، وعن الآثار المصرية، وعن النيل، والروضة والمقياس، والخليج المصري، وغيرها من مختلف الآثار والمشاهد والأحياء.

إن الكتاب كله فى وصف الحياة العلمية والفكرية فى مصر الإسلامية، وفى تاريخها السياسي منذ الفتح الإسلامى، وفى آثارها ومدارسها ونيلها وأحيائها وكل ما يتصل بها سياسيا وفكريا وحضاريا.

وهو موسوعة تاريخية جليلة، ومصدر من أهم المصادر التاريخية، ويبدو السيوطى فيه مفتونا بمصر، فكرا وطبيعة وآثارا نقرأ له فى آخر كتابه وهو يقول:

"وكنت أبيت بعض الليالي فى الفسطاط على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل. أما سور هذه الجزيرة - أي الروضة - الدرى اللون فلم ينفصل عن مصر،وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء، وأبصرت فى هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم ترعينى مثالا له، ولا يقدر ما أنفق عليه، وفيه من الكتابة بصفائح الذهب ما يذهل الأفكار، ويستوقف الأبصار، وقد تفرجت كثيرا فى طرق هذه الجزيرة فقطعت بها عشيات مذهبات لا تزال لأحزان الغربة مذهبات".

وينقل السيوطى عن على بن سعيد صاحب كتاب "المغرب" أن الخليفة الفاطمي الآمر بنى فيها لزوجته البدوية التى هام فى حبها بناء شبيها بالهودج، كما يذكر أن قلعة الروضة كانت عمدها الفخمة منقولة من مراكز الآثار فى مصر، وأن السلطان قد أخذ أعمدة هذه القلعة ليبنى بها المدرسة المنصورية.

إن السيوطى فى "حسن المحاضرة" مفتون بمصر، وبطبيعتها الخلابة ونيلها الساحر. الآثار المصرية ليس لها مثيل، وعجائبها لا يصدقها عقل.

وينقل السيوطى عن الجاحظ أن عجائب الدنيا ثلاثون، عشرة منها فى بلاد الدنيا، وعشرون فى مصر، ومنها الهرمان.

ويقول عن الأهرام إنها أطول بناء وأعجبه وليس على الأرض بناء أطول منه.

ويذكر منارة الإسكندرية العجيبة ويقول: إن الذى بناها قليوبطرة الملكة - يريد كليوباترا ..

كما يذكر فى اعتزاز من دخلها من الأنبياء، ويذكر معجزات الفتح الإسلامي لمصر، ونبوءة كاهن مصري لعمرو بن العاص بأنه سيملك مصر.

ويتحدث عن أن القبط الذين كانوا بمدينة "الفرما" كانوا أعوانا لعمرو فى الفتح وعملوا تحت إمرته.

وفى "حسن المحاضرة" بعض الزيادات التى يرجع تاريخها إلى ما بعد وفاة السيوطى، ففيها ذكر لملوك مصر حتى عام الفتح العثماني لمصر، مما يرجح أن هذه الزيادات من عمل النُساخ.

- ٤ -

وبعد: فقد توفى السيوطى قبل الغزو العثماني لمصر باثني عشر عاماً، فلم يشهد الأحداث الدامية التى وقعت فى هذا الغزو وبعده، وكان هذا الغزو مأساة وطنية كبرى، حيث استولى الأتراك على كنوز مصر وأملاكها، ونقلوا الخلافة الإسلامية من مصر إلى أستانبول، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن حضارة مصر ومجدها وازدهارها فى عصر هذا العالم الكبير قد هزت وجدانه، مما جعل كتابه "حسن المحاضرة" سجلاً رائعاً لعظمة مصر ورخائها ومدنيتها، ولازدهار الحياة الفكرية والعلمية والأدبية فيها كل ذلك مع حرص السيوطى حرصاً كاملاً على روح البحث، مع المحافظة على منهجه التاريخي الذى التزم به، فى كتابه التزاماً شديداً.

إن تراث السيوطى الحافل بالعطاء جدير بعناية الباحثين والناشرين وهيئة الكتاب فى وطننا العظيم.

تاريخ الأدب العربي

لشوقي ضيف

الأدب العربي لا يزال تاريخه مجهولاً، على الرغم من الدراسات الكثيرة التي كتبت فيه، بل لا تزال عصور كاملة من عصوره يحيطها الظلام، ويكتنفها الغموض من كل جانب،ولا تزال كثير من موضوعاته في حاجة إلى الكشف والدراسة.

ولقد نهض الباحثون المحدثون بعبء دراسة العصور الأدبية، في موسوعات كبيرة، من أشهرها موسوعة كارل بروكلمان المستشرق الألماني الكبير، التي تترجم إلى العربية نحو العشرين عاماً، ولم يظهر منها غير ستة أجزاء، وموسوعة الأستاذ أسعد داغر "مصادر الدراسات الأدبية"، التي ظهر منها خمسة أجزاء وانقطعت أخبارها عني منذ حوادث لبنان الدامية، ومنها موسوعة كتبتها في شتى عصور الأدب ونشرت على مدى ثلاثين عاماً في ثلاثين كتاباً تحمل عناوين مختلفة.

واليوم تصدر موسوعة تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف عن العصور الأدبية، وتاريخ الأدب العربي فيها، واختص كل جزء منها بعصر أدبي يدرسه، ومن قبل قام الدكتور شوقي ضيف بمراجعة الأجزاء الأربعة التي أصدرها جورجي زيدان في "تاريخ الآداب العربية".

١- تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي.

٢- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي، والعصر الإسلامي يشمل عصرين من عصور الأدب هما: عصر صدر الإسلام، وعصر بني أمية.

٣- تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول.

٤- تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني.

٥- تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات.

ويتناول الجزء الخامس دراسة الأدب العربي في بيئات ثلاث:

١- الجزيرة العربية بأقاليمها المتعددة: الحجاز - نجد - اليمن - حضرموت - ظفار - عُمان - البحرين.

٢- العراق.

٣- إيران.

وقد ظهر هذا الجزء والجزء السادس عن الشام، والسابع عن مصر. والثامن عن الأندلس، والتاسع عن ليبيا وتونس وصقلية، والعاشر عن الجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان.

ويصور لنا منهجه في هذه الموسوعة بأسلوب التلميح وذلك في مقدمة الجزء الأول منها أيضاً، فيقول: "إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة، تبحث فيها عصوره، من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مسهباً، بحيث ينكشف كل عصب انكشافاً تاماً، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره، وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية".

ويحدد في صدر كل جزء منهجه فيه، وفي آخر كل جزء يلخص بحثه تلخيصاً وافياً، بفكر واضح.

في العصر الجاهلي:

أرخ المؤلف للأدب العربي (في الجزء الأول من الكتاب) للعصر الجاهلي .. تاريخاً مستفيضاً، فتحدث عن الجزيرة العربية جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً وعقلياً ولغوياً.

ودرس الشعر الجاهلي رواية وتدويناً، وما أثير حوله من قضايا تتعلق بالانتحال. ودرس نشأته وتطوره وخصائصه وأعلامه الكبار: امرأ القس - زهير - النابغة - الأعشى، كما درس طوائف أخرى من أعلام الشعر الجاهلي وطبقاتهم. ودرس أيضاً النثر الجاهلي بمختلف خصائصه وألوانه وأعلامه.

فى العصر الإسلامي:

تتسع دراسة الدكتور للأدب العربي - فى الجزء الثاني - فتشمل عصرين من أزهى عصوره، وهما: عصر صدر الإسلام، وعصر بنى أمية..

ومن ثم كان الجزء الثاني من هذه الموسوعة محتوياً على كتابين:

الأول: عن الأدب فى عصر الرسالة والخلفاء الراشدين.

والثاني: عن الأدب وتاريخه فى العصر الأموي.

ويبدأ الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقيمه الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية وعن القرآن الكريم وإعجازه، وعن الحديث النبوي الشريف وبلاغته.

ثم يدرس الشعر فى عصر الرسول والرسالة، وفى عصر الخلفاء الراشدين الأربعة: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، والأعلام من الشعراء المخضرمين وفى مقدمتهم حسان وكعب بن زهير والحطيئة وسواهم من شعراء هذا العصر .. ويدرس النثر وتطوره وخصائصه بالتفصيل.

ويبدأ الكتاب الثاني، عن العصر الأموى، بالحديث عن الشعر وبيئاته والمؤثرات العامة فيه، وطبقات الشعراء وطوائفهم .. كما يدرس النثر بمختلف ألوانه وخصائصه وأعلامه دراسة تفصيلية شاملة.

فى العصر العباسي الأول والثاني (١٣٢ - ٢٤٧هـ):

يلم المؤلف فى الجزءين الثالث والرابع - بالحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، لكل من العصر العباسي الأول والثاني، ويتحدث عن ازدهار الشعر والتجديد فيهما، وعن أعلام الشعراء وطبقاتهم وطوائفهم .. ويتحدث كذلك عن النثر وتطوره وألوانه وخصائصه وأعلامه، حديثاً مفصلاً واسعاً.

عصر الدول والإمارات:

وهو الجزء الخامس من هذه الموسوعة، يدرس المؤلف بيئات الأدب، فى الجزيرة العربية، وفى العراق، وفى إيران، دراسة تفصيلية فى عصر الدول والإمارات

الممتد من عام ٣٣٤هـ، هو عام استيلاء البويهيين على السلطة فى بغداد والخلافة العباسية حتى العصر الحديث.

وهو بذلك يخالف جميع مؤرخي الأدب العربي الذين يدخلون نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسي الثانى، الذين يجعلون نهايته سقوط بغداد فى أيدي التتار عامة ٦٥٦هـ، ويسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم: العصر المغولي، ويسمون فترة الحكم العثماني لتلك البلاد باسم: العصر العثماني.

ويقول المؤلف: إن عمل مؤرخي الآداب هذا، هو تصور مخطئ، لأن سلطان الخلافة العباسية تقلص ظله منذ سنة ٣٣٤هـ، وهى سنة الفتح البويهى لبغداد واستيلاء البويهيين على السلطة: فإيران فى أيدي بنى بويه، والبحرين واليمامة فى أيدي القرامطة، والموصل وحلب فى أيدي الحمدانيين، ومصر والشام فى أيدي الفاطميين، والأندلس فى يدي عبد الرحمن الناصر.

ويقول المؤلف أيضا إنه من الخطأ كذلك الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم: العصر المغولى، لأن سلطان المغول فيها لم يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم الإسلامي والعربي. وكذلك ما كانوا يسمونه: العصر العثماني لم يكن - كما يقول المؤلف - عصرا بالمعنى الحقيقي، وإنما كان حقبة مظلمة.

ولا شك أن هذا الصنيع الذى ينفرد به الدكتور دون مؤرخي الأدب العربي من قبله له مبرراته العلمية والموضوعية، وإن كنت أرى ذلك خلافا فى الشكل أكثر منه خلافا فى المضمون.

يدرس المؤلف فى هذا الجزء ثلاث بيئات للأدب العربي:

١- بيئة الجزيرة العربية بمختلف أقاليمها: الحجاز، نجد، اليمن، حضرموت، عمان، البحرين، ظفار.

٢- بيئة العراق.

٣- بيئة إيران.

وهو يتناول في كل بيئة منها الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والأدبية بالتحليل .. فيتحدث عن نشاط الشعر والشعراء وطوائفهم بالتفصيل، وعن النثر وألوانه وأعلامه كذلك.

ويقول المؤلف إنه سيفرد لكل من مصر والشام جزء، وللأندلس جزء آخر وللمغرب جزء وذلك تتمة لتاريخ الأدب العربي في عصر الدول والإمارات.

النزعة الشعبية:

ويؤرخ الدكتور في كتابه أو موسوعته للكثير من الاتجاهات والنزعات .. ولا يغفل النزعة الشعبية وأدباءها في أجزاء موسوعته.

فهو يشير إلى أبي العتاهية (-٢١١هـ)، ويذكر أن عامة بغداد كانت تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته (ص ٢٥١، العصر العباسي الأول)، لأنه كان يصدر في جمهور شعره عن ضمير الشعب (ص ٤١٤، العصر العباسي الأول)، ويقول: إن كثرة الشعراء كانت من الطبقة العامة، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها.

وهو يذكر الشاعر "أبو المخفف" (ص ٤٣٦، العصر العباسي الأول) الذي كانت له أشعار كثيرة في وصف الرغيف.

وصف رغيفا سريا

حكته شمس النهار

أو صورة البدر لما

استتم في الاستدار

فلي تحسن إلا

في وصفه أشعاري

وذاك أني قديما

خلعت فيه عذاري

كما يذكر الشاعر "أبو الشمقمق"، الذي كانت أشعاره تسودها روح شعبية قوية، حتى في المديح (ص ٤٣٧، العصر العباسي الأول)، وكان بشار بن برد يخافه ويرهبه.

ويقول الدكتور في جحظة البرمكي (-٣٢٣هـ)، وكان من شعراء العصر العباسي الثاني (ص ٥٠٤، العصر العباسي الثاني): إنه خير من يمثلون حياة الشعب التعسة.

ويتحدث المؤلف كذلك عن أبي دلف الخزرجي الينبوعي، واسمه مسعربن مهلهل، وعن أدبه الساساني المملوء بتصوير الفقر وحياة الشعب، وأدب الساسانيين وشعرهم (ص ٦٣٧، عصر الدول والإمارات). ولي عن أبي دلف كتاب بعنوان عبقري من ينبع نشر في سلسلة المكتبة الصغيرة، التي كان يصدرها في الرياض المرحوم الأديب عبد العزيز الرفاعي خدمة للأدب والأدباء، وأبو دلف عاش أكثر من تسعين عاما (٣٠٠ - ٣٩١هـ)، وكان في عصره من أبرز الأعلام والرواد.

مصادر الدراسة الأدبية

تأليف يوسف أسعد داغر

الاختصاصي بعلم المكتبات والبيلوغرافيا والتوثيق العلمي

١- القسم الأول من الجزء الثالث - من أرسلان إلى العظم - ٨٦٤ صفحة - حجم كبير - منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات الأدبية بالتعاون مع المكتبة الشرقية ببيروت

٢- القسم الثاني من الجزء الثالث - من العقاد إلى فؤاد أسعد حبشي - ٧٨٢ صفحة - حجم كبير - منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات الأدبية.

ليوسف أسعد داغر فضل لا ينسى على الفكر العربي الحديث بما صنع من كتابة سير أعلامه، وتحقيق مؤلفاتهم، والإشارة إلى مصادر ومراجع ترجماتهم، ممن عاشوا بين ١٨٠٠ - ١٩٧٢ فى أرض العرب الممتدة من الخليج إلى المحيط.

وكان قد صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب عام ١٩٥٦ حافلا بمئات من أعلام الفكر العربي الراحلين، جامعا بين الترجمة لهم، وإستقصاء مؤلفاتهم ومصادر الدراسة الأدبية لهم، مما ينوء جهد الإنسان المعاصر بالقيام بمثله، أو النهوض بعبء هذا العمل العلمي الكبير.

وفى القسم الأول من مصادر الدراسة الأدبية الذى ظهر عن الجامعة اللبنانية، والقسم الثاني منه لا يزال تحت الطبع، ٥٨٠ ترجمة ودراسة بيلوغرافية لأدباء النهضة الحديثة فى العالم العربى، ويضمان معا ١٦٥٠ صفحة من الحجم الكبير، على الرغم من ندرة الحصول على مراجع للكثير من أعلام النهضة الذين أغفل المعاصرون دراستهم، وأهملوا فى تحقيق كل ما يتصل بحياتهم وفكرهم وتراثهم.

على أن يوسف أسعد داغر لم يخل بشيء من الجهد والعناية والتحقيق والبذل على كتابه ليخرج في صورة كاملة ترضى آمال الباحثين والدارسين، ولا ريب في أن الجزء الثاني من هذا الكتاب، والجزء الثالث بقسميه مصدر أصيل لا غنى لأحد عنه في دراسة النهضة الحديثة. والفكر العربي المعاصر والأديب العربي الحديث في مختلف بلاد العروبة.

لقد خلف لنا الأدباء الذين ترجم لهم يوسف أسعد داغر في الجزء الثالث من كتابه نحوا من ستة آلاف كتاب مطبوع. أشار إليها المؤلف، وذكر أكثر من عشرة آلاف مصدر ومرجع بيلوغرافي عنهم يتقاسمونها على أنساب وأقدار مختلفة.

والمؤلف في هذه السير والترجمات البيلوغرافية عالم محقق موضوعي ناقد، يرسم صورا دقيقة لرواد الثقافة العربية الحديثة ولآثارهم في الأدب والنقد والشعر واللغة والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وأدب الرحلات والصحافة وعلوم الدين والعربية، وبين هذه الأعلام شخصيات تعددت جوانب إبداعها الفني والعلمي والأدبي، فكان لابد من الكشف عنها والإحاطة بها كما يقول المؤلف في مقدمة هذا القسم الأول من الجزء الثالث من الكتاب.

وكل دراسة من هذه الدراسات تتألف من ثلاثة عناصر رئيسية تستقيم وتتكامل لتؤلف وحدة متلاحمة: من هو هذا العلم، وما مؤلفاته، وما المصادر والمراجع الكاملة عنه.

وينتهي الجزء الثالث بقسميه بفهرس أبجدي مفصل شامل للدراسات الأدبية الواردة فيه وفي الجزء الثاني من الكتاب، حيث أن الأعلام الواردة فيها هي أهم أعلام العصر الحديث.

وفي الجزء الثالث ترجمات بيلوغرافية لنحو ١٨١ علما من أعلام الفكر والأدب في مصر، ولنحو ١٩٠ من رواد الأدب في لبنان، و٨٥ من سوريا، و٩٠ من العراق،وباقي الدراسات والترجمات تتقاسمه البلدان العربية على نسب متفاوتة على قدر ما توفرت للمؤلف من المراجع الخاصة.

وكثير من هذه الأعلام أدباء عاشوا فى القرن التاسع عشر أو فى القرن العشرين، أو أدباء مخضرمون عاشوا فى القرنين معا، ومنهم واحد فقط من القرن الثامن عشر هوجرمانوس فرحات، وبين هؤلاء الأدباء والكتاب: خمس عشرة أديبة وكاتبة عربية من لبنان وسوريا ومصر والعراق، وتسعة عشر أديبا مهجريا من أدباء المهجر من اللبنانيين والسوريين، وثمانية عشر طبيبا عربيا من مصر ولبنان والعراق وسوريا ممن خدموا الثقافة العلمية والأدبية معا.

وفى الجزء الثاني من هذا الكتاب "مصدر الدراسة الأدبية" ترجمات لـ٢١٦ علما من أدباء النهضة وروادها تركوا لنا نحوا من ثلاثة آلاف كتاب مطبوع. بينما شمل الجزء الثالث بقسميه دراسات بيلوغرافية لنحو ٥٤٠ علما.

فمجموع رواد الفكر الحديث الذين تضمنهم الجزءان الثاني والثالثُ من هذا الكتاب معا هو ٧٥٦ دراسة، وفى هذين الجزءين ما يزيد على أثنى عشر ألف مصدر ومرجع أثبتها المؤلف فى مظانها من الكتاب، لتكون عمدة للباحث، وذخيرة للمحقق، ومطلبا للدارسين عامة، وهؤلاء الأعلام هم صفوة الفكر العربي والأدب العربي والثقافة العربية فى القرنين: التاسع عشر والعشرين.

وفى صدر القسم الأول من الجزء الثالث يذكر المؤلف المراجع العامة التى رجع إليها فى تحقيق وكتابة هذا الجزء، وللمجلات العربية التى رجع إليها - ويقع ذلك فى خمس وثلاثين صفحة.

ومن الأعلام الذين ورد الحديث عنهم فى القسم الأول من الجزء الثالث: آل كاشف الغطاء، وطاهر بن عاشور، وإبراهيم دسوقى أباظة، وعبد الحميد بن باديس، وايليا أبو ماضي، وأحمد محرم، وأحمد نسيم، وعبد الرحمن البرقوقى، وعلى أحمد باكثير، والبدوى الملثم، وأحمد فؤاد الأهوانى، ومصطفى وهبي التل، وعز الدين التنوخى، وعبد الرحمن الجبرتى، وعبد القادر الجزائري، وحسين شفيق المصرى، وحفنى ناصف، ومحمد على الحومانى، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، وفؤاد الخطيب، وأمين الخولى، وخيري حماد، وإبراهيم الدباغ، ودرينى خشبة، وعبد الرحمن الرافعى، وعادل زعيتر، وأحمد حسن الزيات، وأحمد عارف

الزين. وسليم حسن الأثرى، وعبد الرازق السنهوري. وفؤاد الشايب، وفؤاد شاكر، وحمزة شحاتة، ومحمد رضا الشبيبى، وعبد الرحمن شكرى، وجمال الدين الشيال، ومارون عبود، ومحمد عياد الطنطاوى، وحسن حسنى عبد الوهاب، وعباس العزاوى، وقدري طوقان، وعبد الله النديم، وأحمد عرابى، وسعيد العريان، ومحمد عبد المنعم خفاجى، وكثيرون.

و"مصادر الدراسة الأدبية" يمثل موسوعة بيلوغرافية لأعلام الفكر والثقافة والأدب فى اللغة العربية على مختلف العصور والأجيال.

فالجزء الأول يحتوى على أعلام الفكر العربي القديم إلى عصر النهضة الحديث.

والجزء الثاني يتضمن دراسات بيلوغرافية لأعلام النهضة من الراحلين الخالدين.

والقسم الأول من الجزء الثالث والقسم الثاني منه يتضمنان كذلك دراسات ل ٥٨٠ علما من أعلامنا الراحلين من الأدباء الذين عاشوا ما بين عامي ١٨٠٠ - ١٩٧٢.

وهذان القسمان يحتويان على ١٦٢٢ صفحة، ويشتملان على أكثر من ثلاثة آلاف كتاب لهؤلاء الأعلام، وأكثر من عشرة آلاف مصدر ومرجع عنهم، وهو مجهود رائع حقا، ويعد أعظم الأعمال العلمية فى خدمة تراثنا العربي القديم والحديث معا.

وفى صدر القسم الثاني مقدمة للعلامة المؤلف، وفهرست للأعلام التى تضمنها هذا القسم.

وفى خاتمته فهرست عام للجزء ين الثاني والثالث اللذين يتضمنان أعلام العصر الحديث، و"مصادر الدراسة الأدبية" : "منجم ثرى من الفوائد والمعلومات الخاصة بالأدب العربي الحديث فى شتى مظاهره، ومختلف تياراته ومذاهبه فى البلدان العربية والمهاجر الأمريكية" كما يقول مؤلفه.

والجزء الثالث مرجع من أوسع المراجع العربية وأشملها وأغناها، لدراسة النهضة العربية الفكرية والأدبية.

ومن الأعلام التى احتوى عليها هذا القسم : العقاد، وعلى مبارك، وعلى الغاياتى، وعلى العنانى، وعنبر صادق، ومحمد شفيق غربال، وفريد أبو حديد، وعبد الله فكرى، وإسماعيل الفلكي، ومنصور فهمي، وفهمي المدرس، وحسن القاياتى، وإسماعيل القباني، وحسن قويدر، وأحمد الكاشف، ومحمد كامل حسين، والكوثرى، وسامي الكيالى، وكامل كيلانى ومحب الدين الخطيب، وزكى المحاسنى، ومحمد الأسمر، ومحمد البشير الإبراهيمي، ومحمد مصطفى المراغى، وخليل مردم بك، وعلى مصطفى مشرفة، وإسماعيل مظهر، ومحمد مندور، وإبراهيم المويلحى، وعبد الوهاب النجار، وحسونة النواوى، ومحمد الهراوى، وعبد المعطى الهمشري، ومحمد حسين هيكل، ومحمد فريد وجدي، وأمين سعيد، وخالد الجرنوسى، وإبراهيم سلامة، ومحمد هاشم عطية، ومحمود غنيم، وسواهم من تراجم الإعلام.

رائد المحققين

محمد محيى الدين عبد الحميد

د. محمد عبد المنعم خفاجى

١- علم من أعلام اللغة والأدب، ومن شيوخ العربية فى العصر الحديث، ورائد من أكبر رواد التحقيق العلمي للتراث، تتلمذ عليه أجيال من العلماء، نشروا علمه فى كل الأقطار الإسلامية والعربي.

٢- حفظ القرآن الكريم فى قريته كفر الحمام التابعة لمدينة الزقازيق، والتحق بمعهد دمياط الديني طالبا ثم نقل لمعهد القاهرة، ولما حصل على الثانوية التحق بالقسم العالي النظامي بالأزهر، وحصل على العالمية مع أول فرقة نظامية عام ١٩٢٥ وهو فى سن الخامسة والعشرين، وقد تتلمذ على كبار الشيوخ فى الأزهر، وعلى جيل الرواد الإسلاميين الكبار، الذين ازدانت بهم أروقة الأزهر ومنابر الفكر فى مصر فى أوائل القرن العشرين، وكانوا دعامة النهضة الإسلامية والعربية والوطنية فى العالم العربي كافة.. وكان مثار تقدير شيوخه وكان الأول على فرقته فى الشهادة العالمية، وكان أقرانه فيها من فحول العلماء، وشهدت له لجنة الامتحان بالتفوق العلمي والنبوغ الفكرى، وبفهم كتب التراث الإسلامي فهما جيدا.

٣- عمل بعد تخرجه مدرسا فى الأزهر بمعهد القاهرة، ثم نقل للتدريس فى كلية اللغة العربية أول إنشائها عام ١٩٣١. ثم اختير للسودان عام ١٩٤٠ لوضع مناهج الشريعة لكلية الحقوق بجامعة الخرطوم، وعاد من هذه الإعارة عام ١٩٤٣ إلى كليته - اللغة العربية، وما لبث أن اختير وكيلا لها.

وفى عام ١٩٤٦ اختير مفتشا للعلوم العربية بالأزهر الشريف ثم مدرسا فى كلية أصول الدين عام ١٩٤٨، ثم مديرا للتفتيش فى الأزهر عام ١٩٥٢، ثم عميدا

لكلية اللغة العربية طيلة خمس سنوات ١٩٥٤ - ١٩٥٩ .. ثم عاد إلى كلية أصول الدين أستاذا، ثم عميدا لكلية اللغة العربية عام ١٩٦٤، ولما أحيل إلى المعاش عام ١٩٦٥ اختير رئيسا للجنة الفتوى بالأزهر وعضوا فى لجنة التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية. وكان قد اختير عضوا فى المجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٦٤ ومثل الأزهر فى كثير من المؤتمرات الثقافية واللغوية والأدبية، ووجه الثقافة فيه الوجهة الرفيعة العميقة، التى أثرت فى بناء الجيل الحاضر تأثرا كبيرا.

٤- ويمثل الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد فلسفة لغوية لها منهجها ودقتها وعمقها، فهو يرى ضرورة تربية الحس اللغوي لينتهى بصاحبة إلى الأسلوب فالأدب نفسه، ودور الكلمة فى الأدب دور كبير وأثرها فى بناء العمل الأدبي ضخم وجليل.

٥- والأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد يقف دائما فى مجال الريادة:

فهو أول من فكر فى تأليف كتب دينية مزدانة بالصور للأطفال، فألف خمسة أجزاء: اثنين للبنين، واثنين للبنات، وكتابا مشتركا وقد ذاعت هذه الكتب آنذاك حتى كان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام يذكر أنه شاهد ترجمات لها بالفارسية وبالتركية.

وهو أول من عنى بكتب التراث وتحقيقها تحقيقا علميا دقيقا، مما يتجلى لنا فيما حققه من أمهات كتب التراث فى الأدب والنقد والبلاغة واللغة والنحو والصرف. ولذلك يعد بحق شيخ العلماء المحققين.

وهو أشهر شارح ومفسر لكتب القدماء فى مختلف فنون العلم. وقد سهل بذلك على الجيل المعاصر قراءة هذه المصادر، والإفادة منها والاغتراف من بحرها.. وقد اختارت مؤسسة بريل فى هولندا، نشر شرحه على شرح ابن عقيل بالحروف البارزة ليقرأه المكفوفون، ونحن نشكر لها هذا العمل العلمي والإنساني معا.

٦- وإذا عدنا إلى الأعمال العلمية لهذا العالم الجليل من أعلامنا المعاصرين نجدها تنقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دراسات أدبية ولغوية وإسلامية ألفها، وكانت مثلا لرصانة العلماء. وعمق البحث، ودقة التأليف، ومنها:

١- دراسة كبيرة له عن المتنبي ونقد شعره نشرها فى مجلة الأزهر تباعا. وتعد من أهم المراجع عن أبى الطيب وشعره.

٢- تصريف الأفعال: وهو كتاب مشهور لم يؤلف مثله حقا، ويعد مكملا لمنهج القدماء فى دراسة الأفعال، وطبع عدة طبعات. وكان مرجعا علميا للأساتذة والطلبة فى كليات اللغة ودار العلوم والآداب.

٣- أحكام المواريث فى الشريعة الإسلامية - المعاملات الشرعية - الأحوال الشخصية - أصول الفقه.

وهى كتب أربعة مشهورة كانت تدرس فى كليات الحقوق وأصول الدين. وفى مدرسة الحقوق العليا فى الخرطوم وطبعت عدة طبعات.

القسم الثاني: كتب من أمهات التراث فى مختلف العلوم، حققها عالمنا الجليل تحقيقا علميا دقيقا عنى فيها عناية فائقة بتقويم النص، وضبط مشكلة، وشرح غريبه ومنها:

سيرة ابن هشام - الموازنة للآمدى - يتيمة الدهر للثعالبى - العمدة لابن رشيق - نفح الطيب للمقري - وفيات الأعيان لابن خلكان - زهر الآداب للحصرى - فوات الوفيات لابن شاكر - معاهد التنصيص للعباسي - مروج الذهب للمسعودى - مقالات الإسلاميين للأشعرى - وغير ذلك مما يضيق المجال عن حصره، ومما تلقاه قراء العربية فى كل مكان بالتقدير والإعجاب، إذ رأوا فيه طاقة علمية فريدة، واتخذوا منه عمدة المصادر لجميع طلاب الجامعات فى العالم الإسلامي العربي.

القسم الثالث: كتب من التراث شرحها شرحا وافيا، وذلل صعوباتها للباحثين، وأضاف إليها الكثير من الدراسات.. ومنها أهم كتب الثقافة العربية:

كشرحه للأجرومية الذى خرج بعنوان "التحفة السنية" وظل إلى اليوم يدرس فى جميع أنحاء العالم العربي الإسلامي، وطبع اكثر من خمس وعشرين طبعة.

وكشرحه للازهرية.

وشرحه على شرح قطر الندى لابن هشام الذى طبعه ثلاث عشرة طبعة:

وكشرحه على شرح شذور الذهب لابن هشام.

وشرحه على شرح لبن عقيل فى أربعة أجزاء كبار. وطبع خمس عشرة طبعة

وشرحه على أوضح المسالك لابن هشام، ويقع فى أربعة أجزاء ضخام. وطبع نحو عشرة طبعات.

وشرحه على المفصل للزمخشرى وهو من أصول اللغة العربية.

وشرحه على شرح الأشمونى على ألفيه ابن مالك ويقع فى أربعة أجزاء كبيرة وهو يطبع الآن للمرة الثالثة.

وشرحه على كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين فى جزئين كبيرين، ويدرسه المستشرق الفرنسي بلاشير لطلابه فى السربون مؤثرا لهذه الطبعة على الطبعة الأوربية.

وكشرحه على متن التلخيص فى البلاغة وطبع طبعات عدة.

٧- وقد تتلمذت على عالمنا الجليل أجيال عديدة من الشباب، وفى مقدمتهم أساتذة وعمداء كثير من الكليات الدينية واللغوية والأدبية اليوم.. ومن تلاميذه بابكر عوض الله نائب رئيس الجمهورية السودانية اليوم.. وما اكثر تلاميذه فى الشرق والغرب، وجميع المستشرقين فى العالم يولون بحوثه وتحقيقاته عناية فائقة واهتماما كبيرا.

وكانت وفاته فى عام ١٩٧٣ ... رحمه الله رحمة سابغة.

المسرحية الشعرية في الأدب الحديث

د . محمد عبد المنعم خفاجي

- مصر -

في سلسلة كتاب الهلال الشهرية صدر هذا الكتاب الذى يقع فى أكثر من ٣٧٠ صفحة، متضمنا أعمق دراسة للمسرحية الشعرية وأعلامها فى أدبنا الحديث. وحافلا بشتى المصادر والمراجع التى تثرى البحث وتعمق الدراسة، وتميز هذا العرض السخي الرائع لجانب من أهم جوانب حياتنا الشعرية المعاصرة.

والكتاب محاولة جادة، من الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى لتأصيل فكرة المسرح العربي.

ويحاول الدكتور الحجاجى فى كتابه هذا أن يكشف عن رحلة الشعر المسرحي فى الأدب العربي قبل شوقي وبعد شوقي، للتعرف على الدور الذى لعبه شوقي فى هذا الفن الجديد على العربية، والذى احتذاه شعراء بعده عملوا على إثراء المسرح الشعري وتطوير تجربته.

والكتاب بعد المقدمة فى أربع حلقات:

الأولى: فى التمهيد بحثا عن أوليات الشعر المسرحي فى أدبنا العربي.

والثانية: عن مرحلة التأهيل وريادة شوقي فى الفن المسرحي الشعري.

والثالثة: عن التطور ودراسة إبداعات على أحمد باكثير وعبد الرحمن الشرقاوى فى هذا الجانب.

والرابعة: عن مرحلة النضج الفنى. وأثر صلاح عبد الصبور فى هذا الفن الجديد.

ويذكر لنا د. الحجاجي في كتابه أن فنون الفرجة الشعبية قد أسهمت في ميلاد المسرح الذي استعار من الغرب الشكل، وأضاف إليه المضمون والصياغة والإطار، وهي أولويات المسرح الشعبي، وهو الأساس الذي انبنى عليه.

وفي بحثه عن جذور المسرحية الشعرية يصل الدكتور الحجاجي بنا إلى شوقي ومسرحيته "على بك الكبير" التي كتبها أمير الشعراء عام ١٨٩٣. ويسير البحث مع شوقي في مسرحياته الشعرية تحليلا ودراسة ونقدا: مجنون ليلى، عنترة، كليوباترا، قمبيز. وكيف أن شوقي تناول في مسرحياته موضوعا متصلا اتصالا وثيقا بالشعر الغنائي وهو الحب.

وفي استعراض المؤلف للمسرحية الشعرية عند علي أحمد باكثير وعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور يبلغ البحث العمق وسعة التناول والإحاطة بكل الجوانب الفنية للمسرحية الشعرية عند هؤلاء الشعراء.

البحث يجمع بين الموضوعية والتحليل والتقويم النقدي الموجه. لكن الذي أحب أن أتساءل عنه هو لماذا ينسى جميع النقاد والباحثين محمد عبد المطلب ورواياته الشعرية: امرئ القيس، والمهلهل، وليلى العفيفة التي كتبها وبهذه المناسبة اذكر عدنان مردم من كبار الشعراء والأدباء السوريين، الذي خلف لنا عشر مسرحيات شعرية قبل وفاته في ١٩٨٨/١٠/٢٢ والذي لم يشمله منهج هذا البحث.

نظام الملك

الوزير:

نظام الملك طارت شهرته فى العصر القديم فهو مؤسس الجامعة النظامية (المدرسة النظامية) فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى بفروعها العشرة فى شتى عواصم العالم الإسلامى.

وللدكتور الأستاذ عبدالهادى محمد رضا محبوبة فضل كبير فى دراسة حياة هذا الوزير العالم وشخصيته وأعماله وفكره السياسى والعقلى والاجتماعى على ضوء كتابه "سياسة نامة" أى قانون السياسية.

والدكتور عبد الهادى أستاذ جامعى أصيل، وهو المؤسس الأول لجامعة البصرة الحديثة، وامتد نشاطه العلمى إلى مختلف الجامعات العربية، وقد نال الدكتوراه من معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٥٩ وقد قضى الدكتور محبوبة أعواما طوالا فى جامعة الكويت، أستاذا فيها، وحنينه دائما وأبدا إلى مصر وطنه الثانى بعد وطنه الأول العراق. والدكتور محبوبة بثقافاته الواسعة، وبانتمائه العربى العميق، وبعمله فى الحقل الثقافى والأدبى زمنا غير قصير، يعد فى مقدمة الأساتذة الجامعيين الرواد وتخصصه فى الأدب العربى فى العصر السلجوقى أفاد فائدة كبيرة تجلت فى هذا الكتاب .. كتاب نظام الملك كبير الوزراء فى العصر السلجوقى، وهو العصر الأخير أو الرابع من عصور الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦هـ).

ونظام الملك الحسن بن على بن إسحاق الطوسى النيسابورى (٤٠٨ - ٤٨٥هـ / ١٠١٨ - ١٠٩٢م) الوزير الأول للسلطان السلجوقى إلب أرسلان ثم لابنه ملكشاه، وذلك منذ عام ٤٥٦هـ حتى انتهاء حياته عام ٤٨٥هـ. وهو يشبه الوزير الأول للملك البويهى عضد الدولة وأسرته فى العهد البويهى الصاحب بن عباد المتوفى عام ٣٨٥هـ ولابن العميد من قبله المتوفى عام ٣٦٠هـ.

وقد قام نظام الملك بأعباء السياسة والإدارة والدولة فى عهد كثير الحروب والاضطرابات، ونهض بأعباء الإصلاح فى الدولة السلجوقية المترامية الأطراف، وأنشأ المدارس أو الجامعات النظامية فى شتى أنحاء الدولة تنشر العلم والمعرفة ويقوم بعبء البحث والتدريس فيها علماء كبار ويتخرج منها ألوف الطلاب كل عام، فكان لذلك أثره فى النهضة الاجتماعية والثقافية فى الدولة فى حياته الحافلة بكل ضروب النشاط والتجديد والإصلاح.

وقد شمل التجديد كل ضروب العمل السياسى فى حياته، وكل دروب النشاط الثقافى والعلمى فى عصره، وكان لأسواق العلم رواج كبير قل أن يوجد مثله فى فترة قصيرة كهذه الفترة التى لم تزد على أمد قليل.

عنوان الكتاب هو نظام الملك، الحسن بن على بن إسحاق الطوسى، كبير الوزراء فى الأمة الإسلامية -- دراسة تاريخية فى سيرته وأهم أعماله.

والكتاب بصفحاته التى تقارب الستمائة سجل حافل للعصر السلجوقى. أحد العصور والتحولات السياسية الكبيرة فى الخلافة العباسية.

وهو فى ستة أبواب كبيرة هى أبواب هذا الكتاب:

فالباب الأول: عن نظام الوزارة فى الإسلام وهو ذو فصول ثلاثة.

والباب الثانى: عن عصر نظام الملك وزير السلاجقة فى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى ويتألف من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: عن الحياة الدينية.

والفصل الثانى: عن الحياة العلمية والأدبية.

والفصل الثالث: عن السياسية.

وهذا الباب من أغنى أبواب الرسالة بالمعلومات القيمة عن الحركة الثقافية فى عصر السجلوقيين العصر الذى ظهر فيه أعلام العلماء والأدباء. كالغزالى وأبى إسحاق الشيرازى عميد النظامية فى نيسابور، وكالحارث المحاسبى، وأبى القاسم القشيرى وغيرهم.

أما الباب الثالث فهو عن حياة نظام الملك منذ نشأته الأولى فى طوس .. إلى حياته العلمية فى نيسابور، إلى وزارته للسلطان السلجوقى، وهذا الباب يتألف من ثلاثة فصول:

الأول: عن نشأة نظام الملك الأولى.

والثاني: عن تحصيله للعلم في نيسابور ثم عن وزارته.

والثالث: عن صداقاته العلمية بعمر الخيام والحسن بن الصباح.

والباب الرابع: عن أهم أعمال نظام الملك في الوزارة، من فتوحات ومن تأسيس للمعاهد والمدارس والجامعات النظامية، في كل من بغداد ونيسابور وأصفهان، ومرو وهراة وبلخ وطوس، وأمل، والموصل، والبصرة، وعسكر مكرم.

والفصل الثالث: عن نظام الدولة في عهد نظام الملك، كما يرسمه كتابه سياسة نامة.

والباب الخامس: عن الآثار الثقافية لاصطلاحات نظام الملك مما يوضحه كتابان لنظام الملك نفسه، وهما كتاب سياسة نامة، وكتاب نثر نامة، اللذان درسهما المؤلف وحلل آراء نظام الملك فيهما، في فصلين من فصول هذا الباب، هما الفصلان الأول والثاني، أما الفصل الثالث فهو عن رسائل نظام الملك وأماليه في الحديث.

والباب السادس والأخير من أبواب الكتاب خصصه المؤلف الكبير عن أسرة نظام الملك ومقتله شهيدا بيد شخص شيعي وذلك في العاشر من رمضان من عام (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م).

وهذا الباب من ثلاثة فصول:

فالأول عن أسرة نظام الملك والثاني عن وفاته ودفنه في ضريحه في أصفهان.

والفصل الثالث يشمل ملاحق عدة، من مراسلات ورسائل وأمال في الحديث ونصائح ومواعظ، وفي آخر هذا الفصل يذكر المؤلف الكبير مراجع كتابه التي يبلغ عددها مائة وثمانية وستين مرجعا، منها الكثير من المخطوطات.

وبذلك يختتم المؤلف المحقق الأستاذ الدكتور عبد الهادي محمد رضا محبوبة كتابه الحافل.

ونقف هنا عند نصين ذكرهما المؤلف الجليل فى كتاب عن منزلة نظام الملك فى عصره، وأثره فيه:

النص الأول لأبى الوفاء بن عقيل إمام الحنابلة فى عصره ..

وهذا النص على إيجازه الشديد رسم دقيق لشخصية نظام الملك، يقول أبو الوفاء:

إن سيرة نظام الملك بهرت العقول جودا وكرما وإحياء لمعالم الدين، بنى المدارس، ووقف عليها الوقوف، وأنعش العلم، فكانت سوقه فى أيامه قائمة، وكان العلماء مستطيلين - أى جالسين - على الصدور من أبناء الدنيا، وعمر الحرمين، ودور الكتب وخزائن العلم.

أما النص الثانى فهو للوزير نظام الملك نفسه حيث روى الأبيات الفارسية الآتية قبل أن يفلظ أنفاسه الأخيرة والدماء تملأ ثيابه وتملأ المكان الذى شهد هذه الجريمة، وترجمة الأبيات هى:

"مرت ثلاثون سنة، محوت بها من جبين الدهر الظلم، فخورا بعظمة السلطان المحفوظ. ولما حم القضاء وقد مر من عمرى ستة وتسعون، ومت على أثر سكين فى هذا السفر، فقدمت الصفحة الناصعة البيضاء، وخاتم الحكم، لملك الفرس موقعة بتوقيعك، ووضعتها أمامك، وهذه الخدمة الخالصة للنجل الكريم أحيلها إلى الله تعالى.

مرثية بليغة حزينة دامية قالها نظام الملك نفسه يرثى بها نفسه فى اللحظات الأخيرة من حياته، رحمه الله تعالى رحمة سابغة.

وبعد فهذا الكتاب موسوعة جامعة لحياة نظام الملك وعصره وأعماله ولسياسته فى إدارة شئون الدولة ولتاريخ الدولة السلجوقية نفسها، التى حكمت العالم الإسلامى فترة غير قصيرة وفرضت سيطرتها السياسية على الخلافة العباسية وعلى الخلفاء العباسيين.

وهذه الموسوعة أو قل دائرة المعارف الكبيرة، هى عمل كبير، وكان العصر السلجوقى شديد الإظلام تاريخيا وسياسيا وثقافيا وأدبيا، وجاء الكتاب يضىء العصر، ويفتح نوافذ الدراسة المغلقة لحياة العصر السياسية والعلمية والأدبية، بل والاجتماعية.

علم اللغة والأدب

محمد عبد المنعم خفاجى

من فقه اللغة إلى علم اللغة حدثت تطورات كثيرة فى الدراسات اللغوية، وإن كانت المباحث والدراسات فيهما متداخلة عند اللغويين التراثيين فى لغتنا العربية وعلماء الألسنية المحدثين فى أوربا.

وقد يمكن القول بأن بحوث "علم اللغة" أعم وأشمل، فموضوعات "فقه اللغة" أخص إذ ما هى إلا جزء من مسائل علم اللغة.

ولكننا نرى أنه لا فرق بين المصطلحين إلا فى الهدف والغرض من دراسة اللغة، ففقه اللغة فى التراث العربى ما هو إلا دراسة للغة "كوسيلة" لدراسة الثقافة والأدب عموما ولخدمة القرآن الكريم كمعجزة لغوية خصوصا، و"علم اللغة" بنظرياته وأساليبه الحديثة، وكما يعرفه الألسنيون هو دراسة اللغة لذاتها ومن جميع جوانبها: الصوتية والتطبيقية، والنفسية والاجتماعية، ومن ثم وجدنا فرعا من فروعه يطلق عليه "علم اللغة الاجتماعى"، إلى فروع أخرى له: كعلم اللغة النظرى، والتطبيقى، والنفسى،والآلى، ونجد لعلم اللغة النظرى فروعا عدة: كعلم الأصوات، والفونيمات، وعلم الأصوات الفيزيائى، وعلم الأصوات الوصفى، والمعيارى، وعلم الدلالة، وعلم القواعد.

وحول ذلك كله، ومن أجل البحث حول مجالات الدراسة اللغوية من أصوات وصرف ونحو ودلالة، ونشأة اللغة، وحياة اللغة، وبمختلف مناهج البحث اللغوى من وصفى ومعيارى وتاريخى ومقارن .. تدور بحوث الكتاب الذى صدر للدكتور إبراهيم أبوسكين رئيس قسم الدراسات اللغوية (أصول اللغة) فى كلية اللغة العربية بالزقازيق بعنوان "علم اللغة".

والذى تناول فيه التحديد العلمي والموضوعي لهذا العلم وبحوثه ومجالاته ونظرياته المتعددة وفروعه المختلفة، كما درس الفصائل اللغوية واللغات السامية، وأشهر الجماعات الإنسانية والعائلات اللغوية، والموطن الأصلى للساميين وعرض فى كتابه لحياة اللغة والصراع اللغوى وللعربية ومميزاتها، وللغة والكتابة، ولغير ذلك من الدراسات الجادة والخصبة.

ولا شك أن مصدرا عمليا كهذا الكتاب يعد زادا لغويا مفيدا، ويمدنا بكثير من الأفكار اللغوية القديمة والحديثة على السواء، ومنذ عصر الخليل بن أحمد، وعصور ابن فارس وابن جنى والثعالبى، والأزهرى والجوهرى وسواهم من قدماء ومحدثين ومعاصرين، والدراسات اللغوية فى تطور مستمر، ونماء متزايد، ونحن نحمد لباحثنا الدكتور إبراهيم هذا الجهد العلمى المتميز المتعدد المصادر والمراجع، والذى يتسم بالشمول والعمق ومحاولات التجديد.

ولا ريب فى جدوى هذه الدراسات المتشابكة على الدراسات الأدبية والنقدية، وعلى الأدب نفسه، وعلى محاولات التجديد فى الأدب والنقد عامة، ونحن نعلم أن اللغة هى الطريق إلى الفكر، والفكر هو جوهر الأدب والقضية الكبرى فى إبداعه.

والنقد البنيوى قد نستطيع أن نقول إنه أكثر المناهج النقدية إفادة من دراسات "علم اللغة" على وجه الخصوص وكذلك النقد الدلالى، المتمثل لنا فى "علم الدلالة" والذى يعنى بدرس العلاقة بين الرمز اللغوى ومعناه ويتناول تطور معانى الكلمات تاريخيا،وتنوع المعانى، والمجال اللغوى، والعلاقات بين كلمات اللغة وغير ذلك.

وبحسب "علم اللغة" ثمرة أنه يساعدنا على التوصل إلى القوانين التى تخضع لها اللغة وإلى القوانين الأخرى التى تعمل عملها فى حفظ اللغة ونمائها، وفى إثراء مادة الأدب اللغوية وتجديدها على الدوام.

متخير الألفاظ

دراسة ونقد

- ١ -

الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس (٣١٢ - ٣٩٥هـ / ٩٢٤ - ١٠٠٥م) من أشهر العلماء والأدباء في القرن الرابع الهجري، له كتب مشهورة مأثورة، منها "الصحابي" وغيره.

ومنذ عامين أخرج الأديب العراقي هلال ناجي، عن ابن فارس كتابا بعنوان "أحمد بن فارس: حياته - شعره - آثاره" ويعد إضاءة ذكية تنير السبيل لفهم أهمية تراث ابن فارس العلمي.

وبين يدي كتاب "متخير الألفاظ" للإمام ابن فارس، الذي كان يظن أنه مفقود، حتى وقت قريب .. إلى أن نهض هلال ناجي بتحقيقه ونشره وتقديمه للقراء، راجعا إلى نسختين خطيتين، كانت تحتفظ بهما أسرته:

أولاهما: نسخة خطية ملك السيد أحمد بن عبد الوهاب (-١٩٦٤) عم والد المحقق، وتقع في ٧٥ ورقة، وقد آلت ملكيتها إلى مكتبة المتحف العراقي.

وثانيتهما: نسخة خطية أخرى بخط جد المحقق، وهو السيد عبد الوهاب عبد الرازق الحسني البغدادي، وهي ضمن مقتنيات أسرة المحقق، وتقع في ٨٢ صفحة.

وقد قام هلال ناجي بتحقيق الكتاب تحقيقا علميا ..

أ- فبدأه بمقدمة في ٣٤ صفحة، اشتملت على:

١- ترجمة لابن فارس وتحقيق حياته، بلغت مصادرها خمسين مصدرا.

٢- ثم دراسة للمعاجم العربية ومدارسها، وعن بينها مدرسة معاجم المعاني، التي كان من أبرز نماذجها:

- تهذيب الألفاظ لابن السكيت (-٢٦٢هـ).
- جوهر الألفاظ لقدامة (-٣٣٧هـ).
- الألفاظ الكتابية للهمدانى (-٣٢١هـ).
- متخير الألفاظ لابن فارس (-٣٩٥هـ).
- فقه اللغة للثعالبى (-٤٢٨هـ).

٣- ثم تحدث عن مخطوطات "متخير الألفاظ" ومنهجه فى تحقيقه بالتفصيل. من تخريج الآيات والأحاديث والأمثال والأقوال والأشعار مشيرا إلى مصادرها ومصادر تراجم الأعلام، وتحديد سنى ميلادهم ووفاتهم.

ب- ويلى ذلك نص الكتاب محققا تحقيقا علميا فريدا، لم يظفر بمثله كتاب لغوى آخر وحسبك أن مصادر هذا التحقيق بلغت ٣٧٧ مصدرا.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام ابن فارس جعل كتابه "متخير الألفاظ" موجزا شديد الإيجاز، وبسطه فى كتاب آخر أطول سماه "الحبير المذهب"، ويشير إليه فى مقدمة "متخير الألفاظ"، وهو مفقود .. ويقع متن "المتخير" فى ١١٤ بابا.

- ٢ -

إن علماءنا اللغويين القدامى مع عنايتهم التامة بتأليف المعاجم اللغوية الجامعة - قد اتجهوا فى القرن الثالث الهجرى وما بعده إلى تأليف كتب لغوية مبسطة .. مختارة جديدة، تجمع أبلغ وأجمل ما فى لغتنا العربية من ألفاظ تدل على المعانى المختلفة، مما يحتاج إليه الكتاب والأدباء والشعراء كثيرا من كتاباتهم وأدبهم وشعرهم، ومما يحتاج إليه الشباب فى ثقافتهم اللغوية، وتكوينهم العقلى.

وهذه الكتب كان لها أهمية كبيرة، وكانت تقابل بحفاوة كثيرة من العلماء، ويجىء "متخير الألفاظ" من بين هذه الكتب متميزا تميزا كاملا، مع اشتراكه معها فى المضمون اللغوى المقصود.

ومن أبوابه مثلا هذه الأبواب:

- الكلام والبلاغة[1].
- وصف الكلام الحسن[2].
- الكلام الرديء والعى[3].
- الهذر والإكثار[4].
- اللحن والفحوى[5] .. إلخ.

وقد بدأه ابن فارس:

١- بأبواب تتعلق بالكلام.

٢- ثم بأبواب تتعلق بالأخلاق والصفات.

٣- ثم بأبواب تتعلق بالأسرة والعشيرة.

٤- ثم بالأبواب تتعلق فى ذكر الكرام والسادة.

٥- ثم بأبواب فى ذكر القرابة والرحم. والغنى والفقر، وصفات أخرى.

٦- ثم بأبواب تتعلق بالطبيعة وما يتصل بها.

٧- وفى آخر الكتاب باب طويل بعنوان "ألفاظ مفردة مستحسنة" وهو متعدد المعانى والأغراض، وأكثر هذا الباب أمثال وما يشبه الأمثال.

-٣-

وتعطينا مقدمة كتاب "متخير الألفاظ" صورة لتفكير ابن فارس اللغوى فى كتابه، قال رحمه الله فيما قال:

"هذا كتاب .. متخير الألفاظ" مفردها ومركبها.

---

[1] ص ٤٥.

[2] ص ٤٧.

[3] ص ٥١ من الكتاب.

[4] ص ٥٢ من الكتاب.

[5] ص ٥٣ من الكتاب.

وإنما نحلته هذا الاسم: لما أدعته من محاسن كلام العرب، ومستعذب ألفاظها، وكريم خطابها، منظوم ذلك ومنثوره، ولم آل جهدا فى الانتقاء والانتخاب والتخير وهو كتاب كاتب عرف جوهر الكلام، وآثر الاختصاص بجيده.

أو شاعر سلك المسلك الأوسط، مرتقيا عن الدون المسترذل.

وإنما ألفت كتابى هذا على الطريقة المثلى، والرتبة الوسطى، وجعلت مفاتح أبوابه الألفاظ المفردة السهلة، وختمته بالألفاظ المركبة الجارية مجرى الأمثال والتشبيهات والمجازات والاستعارات .. وعولت فى أكثره على ألفاظ الشعراء، بعد التنقير عن أشعارهم، والتأمل لدواوينهم.

فليعلم قارئه أنه كتاب يصلح لمن يرغب فى جزل الكلام وحسنه ولمن يجود تمييزه واختياره وأما من سواه فسواء هذا عنده وغيره.

وليعلم أن أول ما يجب على الكاتب والشاعر اجتباء السهل من الخطاب، واجتناب الوعر منه، والأنس بأنيسه، والتوحش من وحشيه فهذا زمان ذلك ..

وقد تحريت فى هذا الكتاب الإيماء إلى طرق الخطابة، وآثرت فيه الاختصار وتنكبت عن الإطالة ..".

وكلام ابن فارس هنا فى المقدمة يوضح لنا غرضه من تأليفه، كتابه ومنهجه فيه، بما لا مزيد معه للبيان..

والمحقق الجليل هلال ناجى.. أديب وناقد وشاعر فى الطليعة، وكتبه تشهد له بالأصالة والذوق العالى.

وتحقيقه لكتاب "جيش التوشيح" مثل من أمثلة الدقة العلمية.

إننا نحيى هلال ناجى..

هذا الإنسان العالم المحقق، والأديب الناقد جميعا

نحييه فى دأبه على البحث والتمحيص..

هذا الدأب يصوره هو لنا فى صورته الغريبة على العصر، القريبة إلى أسلوب القدماء فى الإقبال على العلم، والزهد، فيما سواه.. فيقول:

"صاحبت "المتخير" قرابة عام، كان فيه سميرى كل ليلة، ونجي كل دجنة، وكان فيه صاحبا ومحدثا وأليفا، أصوب ما حرف محرف، وصحف مصحف، فلا يسأم ولا يضجر. وأقطع الليل أخرج بيتا لشاعر، أو قال لناثر، فلا يحول ولا يتغير.."

وكم غبت عن دنياى، وأنا أعرض نصا على مصدر.

حتى إذا اجتمعت للغور تالية النجم، وأخذ الليل فى طى الربط وتبين الخيط من الخيط، ودنى إلى دنياى مؤذن ينادى: "أن حى على الفلاح.. قد قامت الصلاة"..

فأنسلخ من دنياى إذ ينسلخ النهار عن الليل، وإذ ينشق النور عن الظلمة.."

من أمثال العرب

الأمثال دائما أصدق تعبيرا عن الشعوب، وأدل على ثقافتها وتفكيرها وحياتها وعاداتها وأخلاقها... وهي أكثر تصويرا للأمم، وأكبر معينا على فهم تاريخها. ودلالة الأمثال على مقدار حضارة الأمم، وعلى نظام معيشتها، ومنهج حياتها في الاجتماع والسياسة والعلم والأدب، مما لا يخفى على أحد... والأمثال كذلك تمتاز بديمقراطيتها، فقد يذيع مثل قاله فقير صعلوك وقد يذيع آخر قاله زعيم أو أمير، ومهما كان فإن الأمثال تعبر عن الشعب بجميع طبقاته تعبيرا واضحا.

والأمثال العربية القديمة جاهليها وإسلاميها ومولدها ثروة أدبية كبيرة، حفلت بها كثير من مصادر الأدب، وجمع الكثير منها علماؤنا القدامى، من مثل أبي هلال لعسكري، والميداني، وسواهما .

والكتب المؤلفة في الأمثال، ومن بينها كتاب "الأمثال للميداني"، فيها الكثير من الغموض والإبهام والتعقيد وتشتمل على الكثير من الأساطير، إلى جانب سوء ترتيبها، والصعوبات الجمة، في الكشف عليها .. وقد كان الشباب العربي في حاجة ماسة إلى كتاب جديد، يقرب منهم فهم الأمثال القديمة، ويزيل الصعوبات في تحصيلها وإدراك مرماها، ويعين القارئ على تذوق البلاغة الأدبية فيها .. حتى كان هذا الكتاب الذي نتحدث عنه، والذي ألفه أديبان من خيرة أدبائنا، وصفوة كتابنا ومؤلفينا، وهما الأستاذان: محمد عبد الغني حسن وعبد السلام العشري.

ومنهج الكاتبين الفاضلين في الكتاب واضح كل الوضوح في المقدمة التي صدرا بها كتابهما ..

فقد اختار أكثر من ٢٥٠ مثلا بحيث تكون ممثلة لشتى عصورنا الأدبية والتاريخية، وتخيرا كذلك أسهل الأمثال تعبيرا، وأبسطها أسلوبا، وأرقها لفظا، وأوضحها دلالة على معناها ومدلولها، وأهملا من اختياراتهما الأمثال التي جاءت

على وزن افعل، والتى أصبحت غير مستساغة فى الذوق، ولا مألوفة عند أهل العصر الراهن .. وفوق ذلك فقد شرحا هذه الأمثال بلغة سهلة واضحة قريبة المنال، مع ترتيب الأمثال ترتيبا جميلا وفق حروف الهجاء .. ومع تخير ما يناسب الطبع العربى فى جملته، ومع مراعاة فروق الزمان، واختلاف البيئات .. فجاء عملهما فى هذا المضمار مبارك الثمرات، ناضج القطوف.

وفى آخر الكتاب وضع المؤلفان فهرسا هجائيا بموضوعات الأمثال. يسهل به الانتقال من موضوع المثل إلى المثل ... أما تتبع الأمثال نفسها، فيسهل عن طريقه الوصول إلى موضوع كل مثل ومورده ... وقد عمل المؤلفان الفاضلان جهدهما على إزالة الصعوبات التى تحيط بالقارئ عندما كان يقرأ كتابا مثل "الأمثال للميدانى" أو سواه.

ولكى ندرك مدى أهمية الكتاب، ومدى توفيق المؤلفين الفاضلين فيه، نسوق حديثهما عن أى مثل من الأمثال، وليكن هذا المثل، وهو"حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق" الذى وقع عليه نظرى فجأة ..

يقول المؤلفان الفاضلان عن هذا المثل: "العقد الذى تلفه المرأة حول عنقها لتتحلى به يسمى قلادة، وأهم جزء فى القلادة ما يحيط بالعنق، لأنه هو الذى يزينه، وبقية القلادة مكملة لهذا الجزء. وهكذا تكون العبرة فى الأشياء بمقدار نفعها، لا بكبرها وصغرها، وربما يجزىء الشيء الصغير،ويغنى ويفضل الشيء الكبير، فقد يفوز أحد الشريكين بأصغر الأنصبة، ولكنه النصيب الأكثر غلة، الأكبر إنتاجا، فيجزى ويفوق الأنصبة الأكبر، أو يبرز واحد من الأبناء فيعتمد عليه أبوه، ويكفيه حاجته إلى بقية إخوانه، أو يبقى مع المرء أخلص الأصدقاء، فلا يهتم بهجر بقيتهم، أو ينفد من ثروة المرء كثيرها العديم الجدوى، ويبقى القليل القيم، فحينذاك يقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، أى أن هذا الجزء هو المهم، وغيره زائد عليه".

بهذا الأسلوب الجميل البليغ، وبهذا التعبير الواضح القريب، وبهذا الشرح الجديد للأمثال العربية ندرك مدى أهمية هذا الكتاب وخطورته معا.

وعندما نطالع المثل "كبر عمرو عن الطوق"، أو "أن من البيان لسحرا"، أو "أن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"، أو "الحديث ذو شجون" أو "لا يدعى للجلى إلا أخوها"، أو "الليل طويل وأنت مقمر"، أو "نفس عصام سودت عصاما"، أو "يقدم رجلا ويؤخر أخرى" .. أو غير ذلك ندرك إدراكا قويا أهمية الكتاب وخطورته..

إن مرمى الأمثال العربية ومغزاها أصبح غامضا لاختلاف العصر والبيئة والثقافة .. ومن ثم فإن هذا الكتاب أجل عمل أدبى لتقريب أمثال العرب إلينا، وللإفادة بما جمعته من بلاغة الإيجاز، وروعة التعبير، وعمق التصوير.

فهرس

تم بحمد الله

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة

تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية